مشكلة مفاهيم

☆☆☆

بالامس القريب كانت لي ، هنيهة ماتعة في مكتب « جريدة بيروت الغراء » وضعتني وجهاً لوجه امام مستشرق كندي شاب يعنى بشؤوننا ، ولا سيا في حدود ما نهيء للغد . . وأنت على مقدار ما تهيء للغد ، تهيء للحياة ، لاستمرار البقاء .

وحكاية هذه اللقاءة ما كانت لتستبد باهتمامي ، لولا انها تريك « كيف يفكرون هناك في الغرب ، تفكيراً هو السر في المشكلة الانسانية ، وفي كل مشكلة تنفصل منها ويعيش قلقها الناس في كل مكان » .

لقد وجدت الخطر ، الخطر كله ، في المفاهيم الاولى للكلمات والاشياء . . هذه المفاهيم التي لا يضرب فيها عرق انساني ، مهما تصنع الناس هناك للانسانية ولمثلها العليا ، تصنعاً فيه الكثير من الزيف ، اي تصنعاً يجعل من المفهوم الانساني عندهم ، شيئاً هو – على حد تعبير صاحبنا الصافي :

« بصل ما به سوء الجلباب » . . .

عرض – وفي حرارة شبابه الفكري – الى قضايا كثيرة ، بينها : الحق والقوة ، وما موقف الحي إزاءهما ؟ والى ايهما ينبغي ان ينحاز ؟ .

وليس يعنيني ابداً الآن ، بحث « الشيء في ذاته » – على حد تعبير (كانت) – كما لا يعنيني بسط ما جرى ، وانما انا اعنى بطريقة التناول ، واسلوب العرض في السؤال الذي يكشف لك عما استوى وراءه .

انت دون شك ، ترى معي في اسلوب وضع السؤال ، تقابلاً بين الحق والقوة ، وهو بالتالي يؤدي الى ان لكل منهما مفهوماً متحيزاً يجفو الآخر ثم لا يلتقي به كخطين متوازيين .

وهنا في هذا التقابل ، القائم في وضع الفكر وطريقة نظره الى الاشياء ، تكمن البلية العاصفة في اصول الحضارة التي « يفبركها » الغرب اليوم ، ويكتوي ونكتوي معه بنارها .

ان المشكلة الانسانية على حقيقتها تقوم هنا وراء اي اعتبار ، واعني أنها مشكلة مفاهيم وتصحيحها . . .

من قال لهؤلاء : ان الحق يقابل القوة ؟ . . وكل شيء في الطبيعة الى ما فوقها ، ينبيء بان القوة هي كذلك اي قوة لانها حق ، فالساعد يكون اقوى لانه اكثر حقاً في التأليف العضوي ، واوفر حقيقة في السلامة ومجدول العضل .

وهكذا قل في الآلة ، فما ندعوه منها « بالاقوى » ، انما نأخذه من هذه الناحية ، اي بمقدار ما فيه من عنصر الصدق ، ان في عملية التركيب او في انتقاء مواد البناء . . والقوة مطلقاً حين تعرى عن القدر الحق فيها ، تفقد حتى الاسم ، لتضحي بربرية ولا شيء غير البربرية .

مثلما هو الشأن تماماً في الحق – حتى في موضوعه المادي – فانما يجد قيمته ، لانه قوة ، قوة في ذاته .

وانا من بعد ، لا اريد ان اذهب مذهباً في البحث التجريدي ، وانما اريد ان اتوصل الى الكشف عن ان الغرب مبتلي برأسه المتورم . . اي انه شيء كأبطال الاساطير : اجساد ضخمة اي آلات ، تدور على نفسها وعلى الآخرين .

عبدالله العلايلي

المساعدات الفنية

بقلم فؤاد صروف

في العصور المتلاحقة منذ فجر التاريخ*، كان الائمة من رجال الفكر، يخرجون في الحين بعد الحين بآراء جديدة، او مذاهب جديدة، في الاخلاق، او في العلم، او في الاجتماع، فلا يلبث بعضها حتى يصير كالمصباح يكشف الطريق فيهتدي به الناس ولكن سير الفكرة الجديدة من دماغ صاحبها، الى ان تصبح منبثة متغلغلة في طوايا الاجتماع البشري، تؤثر في حياة الناس يوماً بعد يوم، لم يكن في عهد ما، منذ فجر التاريخ، سيراً هيناً، فهي كثيراً ما تلقى المعارضة والمقاومة وكثيراً ما يعنى صاحبها، وانصارها من بعده، بالاضطهاد، وقد تثار الحروب من اجلها، الحروب التي يتقاتل فيها البشر، والحروب التي عدتها البيان والدليل. وهذا الوصف ينطبق اكثر ما ينطبق على رسل الدين، ومصلحي الاجتماع وائمة العلماء.

ويقابل هذا التيار، في النهوض بالاجتماع البشري، تيار آخر، يرتد الى ابتكار الوسائل التي تغير بطبيعتها، وبمجرد الاقبال عليها من البيئة الاقتصادية والاجتماعية، التي تعيش فيها جماعات البشر. فكشف النار، واختراع العجلة في فجر التاريخ صنعا ذلك، واختراع محرك الاحتراق الداخلي، واتاحة الوقود السائل المستخرج من النفط، صنعا ذلك ايضاً في عصرنا هذا. فقد برحت القاهرة في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم السبت، وحطت بي الطائرة في مطار نيويورك في الساعة الثانية بعد ظهر يوم الاحد. ولولا محرك الاحتراق الداخلي، وبنزين الطيران المصفى لكان اجتياز خمسة آلاف اوستة آلاف من الاميال، ضرباً من ضروب الخيال. وهأنذا الساعة واقف امام مذياع — وهو وسيلة جديدة — احدث العالم العربي، من دار الامم المتحدة هنا في ليك سكس فلا اكاد أنبس بكلمة حتى تقع في مسمع من يتفضل من اخواني في العالم العربي، بالاستماع الي.

جميع هذه الخواطر، وكثير على غرارها، جالت في ذهني، حين خرجت من اجتماع اللجنة الاقتصادية العامة، منذ ايام، على اثر اتخاذها، قراراً عسى ان يثبت الزمن انه من اخطر القرارات التي اتخذت في هذه الدار واجداها على الناس.

وهذه اللجنة لم تزل، منذ افتتحت هذه الدورة، تتناقش في موضوع النهوض الاقتصادي في الامم التي لم تزل متخلفة في نموها الاقتصادي. والقرار الذي اتخذته، يقضي بعقد مؤتمر تدعى اليه جميع حكومات الدول المتمتعة بعضوية الامم المتحدة، او احدى هيئاتها الخاصة لتنظيم برنامج المعونة الفنية التي ينبغي ان تسدى الى الامم التي تحتاج اليها. وقد اتخذ هذا القرار بالاجماع؛ ولعل لجنة عامة من لجان الجمعية العمومية، لم تتخذ من قبل قراراً في موضوع خطير الشأن كهذا الموضوع، بالاجماع. فقد ايدته جميع الدول على اختلاف نزعاتها السياسية ونظمها الاقتصادية ولم تشذ عن الموافقة عليه دول الكتلة السوفيتية نفسها، التي دأبت على معارضته، متهمة الدول التي اقترحته، وسارت في طليعة الدعوة اليه، بأنها انما تفعل، لكي تقبض بأيديها على اقتصاد هذه الامم المتخلفة في نموها الاقتصادي، وتنشر فيه استعمارها. وفي هذا الاجماع شيء غير قليل من الرجاء.

ويلوح لي ان فكرة بذل المعونة الفنية، للامم المتخلفة في نموها الاقتصادي، والتمهيد بذلك الى نهوضها الاقتصادي ورفع مستوى الحياة فيها: هي فكرة تجمع في حدود تعريفها البسيط، بين التيارين، اللذين يدفعان العمران البشري، دفعاً الى امام، وهما التياران اللذان اشرت اليهما في مستهل الحديث.

اما فكرة التكافل الاقتصادي العمراني على هذا النطاق الواسع بين الدول التي بلغت شأواً بعيداً من التقدم الاقتصادي، وبين الامم التي لم تزل متخلفة في نهوضها الاقتصادي، فتكاد تكون جديدة في الاجتماع البشري، وان كان التكافل بين الناس من اصول الرسالات الدينية العلوية التي تهدي الناس الى الخير. واما فكرة اصلاح البيئة الاقتصادية، فقد صارت بعضاً من عقيدة راسخة في اذهان المصلحين في هذا العصر، ومبدأها ان العالم لا يستطيع ان يعيش في سلام ورخاء، ما دام بعضه راسفاً في قيود القلة والفاقة والمرض. ولذلك حرص ميثاق الامم المتحدة، في مستهله، على التنويه بأن تعزيز الاحوال التي تتيح التقدم الاقتصادي والاجتماعي، من اهدافه الاولى، كما حرص على انشاء مجلس الاقتصاد والاجتماع، وجميع الوكالات المختصة التابعة له، لتبذل كل سعي في طوقها، لتحقيق هذا الهدف. ولعل احداً لا

* حديث اذيع من راديو هيئة الامم المتحدة في لايك سكسس.

ينسى عمل وكالتين من هذه الوكالات، وكالة الصحة العالمية، ووكالة الطعام والزراعة، فعملها حتى اليوم برغم جدة العهد بها، وقلة المال المتاح لها، هو مثال باهر على هذا الاتجاه العالمي الجديد، الذي يرجى له ان يجدي احسن الجدوى، اذا مضى في سبيله.

وقد اشتهرت فكرة المعونة الفنية، التي يراد بذلها، للامم المتخلفة في نموها الاقتصادي، بعد ان حرص الرئيس ترومان على ان يخصها بالذكر، ويدعو اليها في خطبة رياسته التي القاها في اليوم العشرين من شهر يناير ١٩٤٩، ولسنا نريد ان نغض من فضل ترومان في هذا الباب، اذ افرغ الرغبة العامة في مقترح واضح المعالم ولكن الفضل الاول في ذلك يعود الى الامم المتحدة، التي جعلت «التعاون الدولي في حل المشكلات الدولية، الاقتصادية والثقافية والانسانية» غرضاً من اوائل اغراضها. وفي الدورة الاولى التي عقدتها الجمعية العمومية للامم المتحدة، اتخذت الجمعية قراراً قالت فيه: ان بعض الدول الاعضاء تحتاج الى مشورة الخبراء في ميادين النهوض الاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، وان الامم المتحدة تعترف بتبعتها في بذل العون لهذه الدول، وتعترف ايضاً بان هذا النهوض لا غنى عنه للسلام والرخاء في العالم، وان الوكالات المختصة التابعة لمجلس الاقتصاد والاجتماع، هي الاداة المختصة في هذا الباب، فهي لذلك تعهد الى مجلس الاقتصاد والاجتماع بدراسة خير الوسائل واجداها للقيام بهذه التبعة.

فهذا القرار الذي اتخذته الجمعية العمومية في شهر ديسمبر ١٩٤٦ هو الاصل، الذي تحدرت منه النقطة الرابعة، وجميع المباحثات والمناقشات التي دارت في الامم المتحدة وغيرها، واخذت تتكشف اليوم عن خطة عالمية يزداد وضوحها شيئاً فشيئاً. فالنهوض الاقتصادي والاجتماعي في الامم المتخلفة، هو في الواقع مهمة الامم المتحدة في المقام الاول، لا برنامج امة واحدة، هي الامة التي تكلم الرئيس ترومان بلسانها.

نعم ان الولايات المتحدة تنوي وفقا لبيان رئيسها، ان تمضي في القيام بما تراه تبعة واقعة على كاهلها، وقد طلب الرئيس ترومان من الكونجرس الاميركي، ان يخصص لبرنامج المعونة الفنية في السنة الاولى، مبلغ ٤٥ مليون دولار، يباح بعضها الى النصف فيما اذكر، للامم المتحدة لتنفقها مع ما تخصصه الامم المتحدة لهذا الغرض، عن طريق وكالاتها الخاصة، وتنفق الحكومة الاميركية البعض الآخر في هذا السبيل لهذا الغرض.

والطريق الذي يحتمل ان تسير عليه الولايات المتحدة لتحقيق هذا الغرض بيّن من المثل التالي: في وشنطن العاصمة الاميركية، معهد اسمه معهد الشئون الخاصة بالامم الاميركية، وهو وكالة تابعة لوزارة الخارجية الاميركية، كما ترى وكالة الصحة العالمية تابعة لمجلس الاقتصاد والاجتماع في الامم المتحدة. وهناك ايضاً لجنة حكومية مختصة بشئون المعونة الفنية. فالمعهد — ونطاق اختصاصه امريكا اللاتينية — لم يزل منذ عشر سنوات او نحوها يرسل خبراء في الصحة العامة والزراعة والتربية الى دول امريكا اللاتينية التي تطلب هؤلاء الخبراء، فيعاونونها على دراسة مشكلاتها الخاصة بالصحة او الزراعة او التربية، ويشيرون عليها بحلول لهذه المشكلات. واما اللجنة فتبذل من المال المخصص في ميزانيتها ما يعينها على اختيار الشبان النجباء، بالاتفاق مع الحكومات او الهيئات القومية، فيتاح لهم ان ينفقوا في الولايات المتحدة سنة او اكثر او اقل، يتدربون في خلالها على احدث الاساليب الفنية في نطاق اختصاصهم.

ومن قبل ذلك انشأت جماعة من الاميركيين، على رأسهم احد ابناء ركفلر، شركات في دول امريكا اللاتينية، وجعلوا رأس مالها مشاركة بينهم وبين الجماعات المالية المحلية، وجعلوا يطبقون الوسائل الفنية الحديثة في الزراعة والنقل وصناعة الالبان وغيرها، ويدربون ابناء البلاد التي يعملون فيها، على هذه الاساليب، ويعلمونهم ضروباً نافعة من الحذق، في الوقت الذي يتيحون لهم ابواباً شريفة للرزق، وقد قطعوا على انفسهم عهداً بأن يبيعوا نصيبهم في هذه الشركات في خلال عشر سنوات للجماعات المحلية التي تريد ان تبتاعه. وعلى غرار هذه الشركة شركات اخرى.

ومنطقة الشرق العربي هي من المناطق التي اجتمع لها لونان من الموارد — الموارد الطبيعية، والموارد الانسانية، فتنمية الموارد الطبيعية، وفقاً لخطة موضوعة، وتنمية الموارد الانسانية بتحسين الصحة، والنهوض بالزراعة والصناعة، وتوسيع آفاق التربية، تكفلان للشرق العربي عودته الى تبوء المكانة التي كانت له في التاريخ، يوم كانت الحضارة العربية معلمة الدنيا.

والوسائل التي تمهد لتحقيق الغرض كثيرة منوعة، وقد ابانت المناقشات التي دارت في الامم المتحدة في الاسابيع الاخيرة، ان هناك اجماعاً على ضرورة السير في هذا الطريق، طريق الخير العام، وعسى ان يسفر المؤتمر الذي تقرر عقده عن برنامج واضح المعالم منسق الاجزاء، وعسى ان لا تتخلف الدول العربية عن الاشتراك فيه والاستفادة منه بما يمهد للعمل النافع.

القاهرة

فؤاد صروف

الصدى الباكي

☆☆☆

للآنسة فدوى طوقان

نابلس



شاعري ، لا تقسُ في عتبك ، لا تظلم وفائي
أنا حسبي قسوة الدنيا وإعنات القضاء
آه لو تدري بآلامي ، بمأساة شبابي
لبكى قلبك وارتجَّ ليأسي وعذابي

أنا لم أنس هوىً فجّر الحاني وشعري
انا لم انس هوى رفت به ايام عمري
انا انسى ؟ كيف ؟ لا يا حلم قلبي يا نجيّي
لا ومن ألّف روحينا على الحب النديّ

سل ضمير الليل هل اودعته اسرار حبي
هل تغنيت بأشعارك في وحدة قلبي
ان هذا الليل يطوي كل اسرار حياتي
انه معبد احلامي ومأوى ذكرياتي

شعرك العاتب كم فجّر دمعي ، كم شجاني !
والنداء الشاعريُ العذب كم هزّ كياني !
لو تراني والهوى يصرخ في روحي الاسير
وانا اشدو بأشعارك في الليل الكبير

انت روح طائر يشدو على كل الغصون ...
يرتوي من خمرة الحب ومن نبع الفتون
وانا روح سجين ، قصّت الدنيا جناحي
نغمي ينبيك عني ، عن مدى عمق جراحي

رحمة يا شاعري وانظر الى اصداء روحي
انها في شعري الباكي استغاثات ذبيح ! .
انها يا شاعري أنّات مظلوم طريد ..
انها غصّات مخنوق بأطواق الحديد ...

كلما ضمّك حضن الليل في صمت وحزن ..
ومضى قلبك حيران الهوى يسأل عني ..
ارهف السمع ... تجد روحي ، مجروحَ النداء
ضارعاً في الم : رحماك لا تظلم وفائي ! .

من ايام الرعب

المعدم الثامن

بقلم يوسف الشاروني

كان ذلك يوم الجمعة . وكان محجوب قد امضى الصباح كله في عمل قام به بكل نشاط واهتام . كان قد خرج في الفجر الى « الحوش » ، فوجد نفسه امام بيت من بيوت النمل ، فسلط عليه الماء حتى اغرقه وهو يتأمل محاولات النمل للخلاص . ووجد لذة غريبة في هذا الاكتشاف المفاجىء . وادار نظره في الحوش فوجده مليئاً ببيوت النمل الكبير والصغير والاسود والاصفر ، فأمضى الصباح كله يملأ اقداح الماء ويصبها فوق بيوت النمل وهو يتأمل الطرق التي يحاول بها النمل انقاذ نفسه، وهو يجد لذة مرهقة في ان يسد عليه كل منافذ الخلاص.

والواقع ان هذا العمل لم يكن ليستأثر الا بانتباهه السطحي ، اما في اعماقه فكانت ثمة زحمة من الاحاسيس والعواطف الفزعة الاسيانة . كان في المحكمة بالامس ينادي كعادته بصوت مرتفع جاد: محكمة ! فتدخل هيئة القضاء ليسمع ما تصدره من احكام على اللصوص والمدمنين والقتلة والعاهرات وعلى افرازات المجتمع هذا القذر . ومنذ عمل محجوب حاجباً بالمحكمة والمجتمع يفرز صديده دائماً وباستمرار كل يوم . . كل يوم، منذ خمس سنوات . وكان المجتمع عبقرياً في هذا الافراز، بحيث لم تعرض لمحجوب قط حالان متشابهتان، دائماً كان من نوع جديد وغريب وفظيع وبلا انقطاع.

وبالامس – وللسابع مرة في هذا العام – يسمع حكم الاعدام . ولم يكن سماعه حكم الاعدام يعني لديه سوى بضعة كلمات يقولها القاضي ، لولا انه اتضح له بالامس فقط انه كان يمكن ان يكون هو ذلك الشخص المحكوم عليه بالاعدام ولا يزال يمكن ان يكون الشخص الثامن .

كان المحكوم عليه بالاعدام في الثانية والثلاثين – اي في مثل سنه تقريباً – رقيق التقاطيع ، خجولا ، حييا . له انف دقيق كأنه انف فتاة ، وعيناه عسليتان تدوران في ارجاء القاعة كأنما تبحثان –عبثاً– عن منقذ او مُعز له في بلواه . وكانت تلك هي خامس جلسات هذه القضية وآخرها . وكانت الدلائل والقرائن على جريمة الشاب واضحة . كان الزوج قد دخل وهذا الشاب يضاجع زوجه، فلما هم الرجل بخنقه بيديه، امسك الشاب خنجراً كان يحمله معه تأهباً لما عساه يحدث ، وظل يطعن الرجل حتى مات . وكانت المرأة تولول في هذه الاثناء جزعاً على زوجها وعلى عشيقها فأقبل اكثر من جار وشهدوا بعيونهم الشاب وهو يطعن الزوج طعناته الاخيرة ، واعترفت المرأة بالقصة وحاول الشاب الانكار في اول الامر ، لكنه ما لبث ان اعترف ، فثيابه الملوثة بالدم ، وبصمات اصابعه على الخنجر وشهادة الشهود . . وتذكر محجوب موعده مع حسنية في عصارى اليوم ، وماذا يحدث لو دخل عليهما ابوها ؟ اما يمكن ان يكون هو الشخص الثامن الذي سيقف في القفص المرة المقبلة ويسمع حكم الاعدام على نفسه من فم القاضي؟

وعندما صحا من نومة الظهيرة كانت أمه العجوز تتشاجر مع بائع الفجل . ولم يكن هذا جديداً عليه . فقد كان محجوب يسمعه في حارة الزرايب كل يوم من امه ومن الجارات مع بائعي الفجل والفول ومع الست ام حسن بائعة الطعمية على طرف الحارة الشرقي ومع ذلك فقد أنصت اليوم في دقة الى النقاش الدائر بين امه وبائع الفجل . كانت امه تريد شراء ست حزم بعشرة مليمات وكان البائع مصراً في صوته الاجش الغاضب على ان يبيعها باثني عشر مليما . وكانت حجة امه في رأيها انها ستشتري بسعر الجملة وكان الرجل مصراً على ان يبيع كل حزمة بمليمين مهما كان مقدار ما يبيع . وأثار

قصة

هذا الشجار في نفسه مجموعة من الاحاسيس المتشابكة المختلفة الممتدة كأنها الى اعماق سوداء مظلمة لا آخر لها. احساس بالاشمئزاز وبالحقارة وبالضعة وبالكراهية التي تبلغ حد الجريمة، وبرطوبة الحارة وقذاراتها والوحل المتراكم فيها وبمجموعات الذباب المزدحم على انوف اطفالها وعيونهم وافواههم، وبالشجار الذي لا ينقطع خارج البيوت وداخلها، وبالكابوس الجاثم من الازل على معدته وعلى روحه.

وتذكر موعده مع حسنية... كان يحلم بهذا الميعاد منذ اكثر من اسبوع، وان كان يمهد له ويعد العدة منذ شهور. كان الرجال ينقسمون امامه الى قسمين: رجال لهم نساء، ورجال بلا نساء، وكان يعذبه انه من رجال القسم الاخير. وانه ليحرم من الطعام ليلة ويعيش اشهراً على الفول والطعمية والفجل، لكن الناس جميعاً يأكلون. اما هذا الجوع الجنسي فهو ازلي ازلي لا يتساوى فيه الناس.

وتذكر حكم الاعدام بالامس...

وعبر محجوب على الست ام حسن فلاحظ انها علقت فوقها اليوم لافته قديمة قذرة كتب عليها: هذا من فضل ربي. ووصلت الى انفه رائحة الطعمية. أما هي فكانت مشغولة بضرب طفلها محمد ضرباً سريعاً متلاحقاً، وطفلها يزعق زعقات متقطعات متحشرجات.

وظل يسير من حارة الى حارة ومن زقاق الى زقاق، حتى وصل الى الطريق العام حيث وقف ينتظر الترام وملأ رئتيه بالهواء الجاف وملأ عينيه بمناظر الفتيات المتأنقات الناعمات.. حتى اقبل الترام مزدحماً، فتعلق بسلمه واخترق الواقفين حتى وجد نفسه بالدرجة الاولى، لم يكن بها سوى رجل بدين يرتدي جاكتة بيضاء، رأسه صلعاء. وقد برزت فوق جبهته كرة صغيرة من اللحم. فدفع الباب الى الدرجة الثانية، وأوجد لنفسه مكاناً بين المزدحمين. وحدثت المعجزة... فقد قام شخص بدين تفوح منه رائحة العرق ليجلس مكانه محجوب. وكانت جلسته الى جانب فتاة رفيعة متبرقعة قد كشفت عن احدى ذراعيها فبدت من خلال الملاءة السوداء بيضاء ناعمة طرية. واحس محجوب بالدفء وطراوة اللحم الى جانبه، واخذ يتحسس — في حذر — طريقاً لذراعه الى جانب ذراعها حتى التصقت بها. ولم تحرك الفتاة ذراعها، فاطمأن محجوب الى انها راضية بهذا اللصاق مما اضاف الى لذته الحسية لذة خفية سعيدة بالانتصار.

وكان على جانبه الآخر شاب في بذلة عمالية بها بقع من الزيت هنا وهناك، يقرأ باهتمام احدى الصحف المسائية، فلم يلهه التصاق ذراعه بالحسناء المتبرقعة — التي كاد ان يمس الآن ثديها الايمن مساً رفيقاً — من ان يقرأ الصحيفة على طريقته التي تعودها كل صباح: ذلك ان يمد بصره الى العناوين الضخمة في الصحيفة التي يقرؤها الجالس الى جواره او الواقف قبالته في زحمة الترام... واستقر بصره اخيراً على خبر قصير حول تخصيص ١٢٥ الف جنيه لاصلاح رأس البر. ماذا لو اعطي هو مائة جنيه، مائة جنيه فقط لاصلاح حاله هو... اذن لتزوج ولما احتاج ان يعرض نفسه للتهلكة والاعدام في مغامرات جنسية لا تشفي ولا تروي، وماذا لو خصصت خمسمائة جنيه لاصلاح حارة الزرايب؟ كان ابوه من اهالي دمياط وانه ليذكرها حين كان يصحبه في صغره اليها، ولا يزال يذكر سوق الحسبة والشيخ محمد الذي يحمل السلاسل والحديد حول عنقه ويدور وسط الميدان والناس يتباركون به. وكان يصحب اباه الى رأس البر وقت اعدادها للمصيف. ولم يكن يحسب انها في حاجة الى مليم واحد... اما حارة الزرايب؟ وافاق من تفكيره حين لمح الفتاة التي الى جانبه تقوم لتغادر الترام، وحين اخذ يتعالى شجار قاطع التذاكر مع احد اولاد البلد.

ونزل اخيراً من الترام في طريقه الى حسنية، وقد بدأ يحس حاجته الى الحماس كي يواصل سيره. فقد بدأ يغادر الطريق العام الفسيح المضيء، ويخترق الازقة من جديد. وراودته الرغبة ان يقفل راجعاً الى «الحوش» يصب الماء فوق بيوت النمل لاغراقه، على ان يكون الماء ساخناً يغلي هذه المرة. واحس انه لا يطيق صبراً حتى يذهب الى حسنية ثم يعود ليجرب تجربته الجديدة ويرقب نتائجها المريعة. ورغم هذا فقد ظل سائراً — ومر على عم علي والد حسنية. كان منهمكاً في ترقيع احد الاحذية القديمة في مكانه المعهود بجوار الحائط الخشبي، ووقف الى جانبه احد الاهالي كأنما ينتظر اصلاح حذائه. وتفرس محجوب هذه المرة جيداً في عم علي، كان رجلاً هزيلاً كث اللحية ابيض الشعر. ان في الامكان قتله لو انه فاجأه مع حسنية.. وعاوده الاحساس بالاشمئزاز والحقارة والضعة والكراهية، ثم الحرمان، الحرمان الضخم المخيف الذي يدفع الى كل جريمة والى كل جنون.

ورآها واقفة على باب الدار تستقبله بابتسامة عريضة، وفي عينيها شهوة وفي وجهها ألم وفقر وحرمان. وكانت تفوح من مدخل الدار رائحة كريهة قذرة، بينما كان اخوها الصغير محمود يزحف على تراب الارض تاركاً وراءه خطاً طويلاً من براز سائل اصفر. واختفت حسنية لحظات ثم عادت تنظف الارض بقطعة من الورق. كان شعرها غزيراً ناعماً، وبدا عجزها — وهي منحنية تنظف الارض — مستديراً ملفوفاً خلف ثوبها الاحمر المتمزق. وعادت

عزيزة

صورة وصفية

بقلم وديع فلسطين

•

لو تمثل الفن بشراً ، لكان «عزيزة» فهي اصيلة في فنها منذ الحداثة لانها نشأت في دار تعرف الفن وتهيم به ، وتربت على انغام الموسيقى الشادية واستوى عودها بين انوار مضيئة تلتهبها ، ولما آن لها ان تعوّل على نفسها كان الفن قد تغلغل في كل حواشيها فصارت عابدة في هيكل الفن ؛ وصارت في الوقت عينه معبودة من التياهين بصنوف الفن وصوره والوانه وزخرفه .

ولكن لعزيزة مذهباً في الفن يسمو بها على كثير من اقرانها واترابها ، لانها لا ترى في الجمال مايراه سائر البشر من لذاذات عارضة وشهوات عارمة ، بل ترى فيه داعياً الى التقديس والترفع ، وترى فيه عتبة ترفع البشرية من اوحالها ، وترى فيه معاني لا تميل الى انحدار ، بل تتدرج الى سامق من الذرا .

هيهات للفن ان يجد لعزيزة مثيلاً ، فهي تعيش له وتروم ألا تعيش إلا له .

وحياتها الفائتة لم تتجاوز عقدين الا قليلاً ، ولكنها مع ذلك لاتطمع الا في عشر من سنوات الربيع تكون مكتظة بالاحداث والانباء ، وما ذلك الا لانها تقيس العمر بعرضه لا بطوله ، وتزن الحياة بميزان الابريز لا بميزان من المعدن الرخيص .

لقيتها اول ما لقيتها في حفل دبلوماسي من تلك الحفلات التي ترد دعواتها الي تترى في كل يوم ، فمن عمل للصحافة اليومية غمرته الدعوات الى محافل المجتمع ، وموائد الكبراء وقصور العظماء ، وكانت في صحبة شاعر من خير شعراء الجيل خلقاً ومن اصفاهم نفساً ومن انبلهم منبتاً ومن اعذبهم قصيداً . وكانت الكؤوس تقرع الكؤوس ، والاكتاف تصدم الاكتاف ،

حسنية ترحب به ، ومرت امامه صور من المدينة الباهرة ، فاجلسها الى جانبه وهو يقص عليها قصة امس وحكم الاعدام الذي سمعه كأنما يريد ان يخيفها . اما هي فكانت تقترب منه في تهالك واستجداء تريده ان يقبّلها .

منذ خمس سنوات وهو يقوم بمثل هذه المغامرات ، ولم يحس في يوم ما انه حصل على امرأة . وتذكر رأس البر ، ماذا لو كان الآن مع واحدة من حسناواتها هناك ؟ انه لا يرقى ولايتغير ولا يتحرك . لقد ظل صاحبنا بالمحكمة منذ خمس سنوات وهو لا يأمل ان يكون خيراً من ذلك في مقبل الايام . ولقد ظلت حارة الزرايب بوحلها وذبابها وشجار اهلها هكذا منذ خمس سنوات ، بل منذ تاريخ لا يعرف متى بدأ ، ولا يأمل في اصلاحها في مقبل الايام . ولقد ظل يضم اجساداً كجسد حسنية في جنح الليل او بعيداً عن العيون كالمجرمين واللصوص ، ومع ذلك فلم يكن له بيت ولا اطفال كما يكون للآخرين . انه يدور ويدور لا يتقدم ولا يتطور .

وكانت حسنية لا تزال تحاول مداعبته ، فنظر الى عينيها التعبتين المتألمتين ، والى الشهوة التي تضج في جسدها امامه . وتذكر فكرة الماء الساخن الذي سيصبه على بيوت النمل في « الحوش » بحارة الزرايب ، فضمها الى صدره ضمة قصيرة عنيفة ، وطبع على جبينها قبلة ، ثم خرج يهرول .

الخرطوم — يوسف الشاروني

والافواه لاتكف عن الكلام في السياسة آناً وفي اخبار المجتمع آناً . ولكن مجلساً واحداً من تلك المجالس الكثار لم ينصرف الى حديث الادب والفن والشعر الا مجلس « عزيزة » والشاعر وصاحبهما .

وكلما خطرت امامنا فاتنة ، ترّسل الشاعر في شعر من نظمه او حافظته ، وانبرت عزيزة تضعها على مشرحة الفن فتقول ان فيها شيئاً من القصر او قليلاً من الطول ، او ان في مشيتها انحناءة يسيرة ، وليس اقدر على المرأة من عرفان عيوب المرأة . ولكن عزيزة لا تقنع بالارشاد الى المعايب ، بل تقرن ذلك بالتنويه الى المحاسن وهي في هذا تخلص اداء رسالة الفن المثلى التي تعطي لكل صاحب حق ما يستأهله في غير سخاء مفرط او ضن معيب .

وراقني حديثها ، واستهواني صوتها العذب الحنون . فهذه فتاة خلعت عليها الدنيا آيات من الجمال الاخاذ ، ومنحتها الطبيعة وفرة من جاذبية الوجه وجاذبية الروح ، ولكن يفضل هذا جميعه انها فتاة عرفت كيف تحبو نفسها بالقدرة على تخير الاحاديث المشتهاة . ولقد عرفنا كثيرات من اللائي يترددن على المجتمعات ذات الزحام ، وسمعنا منهن كثيراً من الكلام ، فكان اكثره لغواً وبلبلة لسان ، وكان قليله مما تستطيبه النفس الكريمة . و« عزيزة » وضعت نفسها في موضع المقل المفيد ، تحبس اللسان اذا رأت منه ميلاً الى ثرثرة ، وتطلقه حين تأنس فيه سلامة الاداء لفظاً وموضوعاً . وهي تستوحي ذلك من ذخيرتها الفنية الكبيرة الرصيد ، لان الفن ليس مجرد الوان صارخة تطلى بها اللوحات ، ولا هو مجرد ظلال عارضة تلقى اينما طاب لها ، بل الفن دقيق في انتقاء اللون المناسب للوضع المناسب ، واختيار الظلال حيث يجب ان تكون .

فعزيزة ، كما انها لا تفرط في مزج صورها ورسومها ، كذلك لا تسرف في كلام مرسل عديم الغاية فقير الى الروح . وما ذلك الا لان صورة الفن عزيزة لا تستكمل مقوماتها الا اذا جعلت من نفسها رقيباً وناقداً على نفسها . وهذا هو سر اعجاب عارفيها بها ، وهذا هو سبب ما تلقاه من تقدير ينصب اغلبه على شخصها ، وتنال رسومها كثيراً منه .

هل زرت « عزيزة » في دارها الصغيرة الرشيقة ؟ لقد جعلت منها كرمة تجمع الى البساطة ذوقاً خلاباً ومزاجاً رائعاً ونفساً تنحو نحو الهدوء . فقد اختارت دارها في حي يسمونه « حديقة المدينة » هو بستان وسط القاهرة ذات الضوضاء ، واختارت لدارها شرفة تطل على حدائق ذات زهر ، وجعلت من هذا البيت الانيق منتجعاً لها ومرتاداً لصحبها تجمعهم كما يجمع البستاني ضمامة من الزهر العبق ، وتلم شملهم كما تلم المرأة اطراف ثوبها لتبدو به وقد اكتملت زينتها .

وحين طرقت باب بيتها لاول مرة ، جذب بصري ذلك التمثال الاسود الكالح لرأس زنجية مجعدة الوجه كثة الشعر تبدو الفطرة في كل سماتها . ورأيت الى جواره صورتين « لعزيزة » تزهو كل منهما على شقيقتها وتزعم التميز عليها . فتالله ما انبل وجه عزيزة وما اجمله في الطبيعة وما اجمله على ورق التصوير ، وما ابهاه وهو امام مفارقة عجيبة تتبدى في وجه تلك الزنجية الكئيبة . ولكن عزيزة ترى في هذا التمثال جمالا لا نراه نحن الذين نرى الفن ونعجب به ونعجز عن صنعه . اما هي فانها تصنع الفن وتخلقه وتنشئه ، ونعم ما تصنع وتخلق .

وبيت « عزيزة » لا يخلو من الكتاب وكم رأينا الكتاب مهجوراً حتى في دور قادة الرأي واصحاب السلطان ! لانها تجد في « الورق » سواء كان مكتوباً او مرسوماً هوى ولذة لا يعدلها هوى او لذة . والذي يعيش بين الورق يجد نفسه منصرفاً عن ورق النقد وصكوك المال . فالورق اذا قوم بثمن اصبح قليل القدر يصيب حتى الاميين وانصاف المتعلمين . اما اذا ترك تقديره لميزان غير ميزان الدراهم ، فحينئذ يكتسب القيمة الخالدة .

افلا ترى الحكومات عاجزة عن ان تشتري صورة « الجيوكندا » ؟ افلا ترى تمثال « نفرتيتي » يحدث ازمات سياسية ولا يرد لمصر ولو بثمن غال ؟ فالدرر الخالدة تزهد امام قيمتها كل قيمة مالية او نقدية ، لانها جزء من عبقرية الايام .

وعزيزة عبقرية من عبقريات الايام .

القاهرة — وديع فلسطين

الى مغنيها

✡

لسعيد عقل

من ديوان رندلى
الذي سيصدر قريباً

●

يا نجيّي، ونجيَّ
الانجم البيض الحرارِ،
غنّيني، أشهى من الغفو
على الصدرِ المُداري،
طُرفةَ شفّافةَ النبرةِ،
عذراءَ الإزارِ،
مِن سَنى السُّوسَنِ فيها
ودماليجِ الصِغارِ،
ومن التجوابِ والتيهِ
بأحضانِ الصحاري.

شُقَّ آفاقاً من الالحانِ
ملأى بالجواري،
طافراتٍ من غوىً
آناً، وآناً في انسحارِ
كاسياتٍ من بهاءٍ،
ومن الوهمِ عوارِ.

***

واسترِقْ، من نقلةِ
الحسّون فوق الجُلّنارِ،
آهةً حُرّت بلَفحِ
الظُهرِ، أو شِيبتْ بنارِ،
تتعالى، تتعالى
وسعَ شوقٍ وانتظارِ،
أترى عند شفاً، حطّت
بهذي الارض، هارِ؟
عَلَقتْ عن جريه الليلَ
وهمّتْ بالنهارِ،
فهيَ أفقُ المنتهى،
والكونُ منها في دُوارِ!

***

وإذا شبّبتَ باسمٍ
بات معشوقَ الجوارِ،
هاتفاً، مُحاوِليَ المدّةِ،
مغناجَ القرارِ:
مِرْكيانٌ، مركيانُ
العمرِ، كرّاتُ الكناري!
أخذتْ تساقطُ الشُهبُ
علينا، والدراري.

***

ساعةٌ وانفلتتْ!
ما نجدُ؟ ما شمُّ العرارِ؟!

في الوصيــة

ليس أقدر على الابانة عن الضعف الانساني من استقراء الوصايا التي يكتبها الموصون الى من تشملهم الوصية. وهي الفرصة الاخيرة التي يظهر فيها التواء الطبع، وفساد المزاج.

وساعة الوصية هي الساعة التي نكون فيها اكثر حرصاً وأشد غيرة. وهي الساعة التي نسوّف فيها ونماطل، ما وسعنا التسويف، وما أمكننا المطال.

فاذا دنت ساعة الوصية عملنا على ان لا يكون موتنا سبباً في اسعاد كائن من كان ثم عملنا على ان ترتب امورنا على الحد الادنى من الخير. وعلى ان نتولى بالازعاج والمضايقة اكبر عدد مستطاع من الناس.

ومن الناس من يتملكه الوهم انه اذا أوصى فقد دنت ساعة رحيله وكثير ممن سارعوا — في نوبة من نوبات المرض — الى عمل الوصية، قد لبسوا ثوب العافية. فأصبحوا على ما اوصوا به نادمين.

ويحكى ان سيدة — ليست من ذوات الثراء — كانت تكره الاجراءات الطويلة المعقدة. او على الارجح كانت لا تستطيع دفع تكاليف تلك الاجراءات. رأت بفكرها الثاقب ان توصي بما تملك من اكسية ومنقولات منزلها الى صحبها وذوي قرباها. وكان ذلك بطريق المشافهة وقبل ان تلفظ آخر انفاسها. فأوصت — طائعة مختارة — بالكرسي والمائدة الى احدهم. وبسريرها الى آخر. وبردائها الى احداهن. وبقميصها الى اخرى وهكذا...

وبعد ان تمت القسمة جلس العجائز يبكين حولها. وبعد ان أدّين واجب البكاء على الراحلة العزيزة... حملت كل نصيبها من المتاع ومضين. وقد تركن المحسنة الكبيرة في يد القدر

وسرعان ما استردت المريضة ثوب العافية، فارسلت تسترد ما اوصت به من اكسية ومنقولات. ولكن احداً من الموصى اليهم لم يلب النداء فعاشت تندب متاعها المفقود. وتبكي حظها المنكود.

والناس يحبون جمع المال وتكثيله، وهم على قيد الحياة. ويحبون كذلك ان يتركوه كاملاً غير منقوص. وهم يجعلون ايديهم مغلولة الى اعناقهم. ولا يصرفون من اموالهم شيئاً. بل يدخرونها في خزائن مقفلة ويجعلون منها صنماً يحجون اليه.

وناس هذ شأنهم هل يرجى منهم ان يجعلوا في اموالهم حقاً معلوما للسائل والمحروم؟

وناس هذا شأنهم هل يرجى منهم الخير لاعقابهم وذراريهم. وقد كانوا على انفسهم من البخلاء المقترين.

لذلك ترى امثال هؤلاء يشترطون في الوصية شروطاً يضمنون بها زيادة المال الموروث، ونماءه، اشباعاً لشهوة الكبرياء. والطمع. وليبقى بريق المال ورنينه رمزاً خالداً لشيطان المال او شيطان الجشع.

وهؤلاء لا يكادون يعرفون ان هناك شيئاً اسمه الاحسان والخير.

ومن الامثلة على الرغبة الملحة في الادخار والجمع ما يحكى من ان رجلاً من الاثرياء كتب الوصية الآتية قبل ان يحين حمامه:

« ان يمتنع الموصى اليهم من التصرف في الجزء الاكبر من الثروة وان يضاف اليها سنوياً ما ينتجه المال من فائدة وربح، حتى يجتمع في النهاية ما يكفي لشراء اقصى ما يمكن شراؤه من ثابت ومنقول.

فلو نفذت هذه الوصية لانتهى الامر بأن يخلق منها قصة خيالية بعيدة كل البعد عن الواقع الملموس وهذه الوصية ان دلت على شيء. فانها تدل على ان الرغبة في استمرار الجشع بعد الموت متمكنة عند الموصي كتمكن الرغبة في استمرار ذيوع الصيت بعد الموت سواء بسواء.

وهناك الوان غريبة من الوصايا: فقد يوصي اللصوص — كمنحة اخيرة الى اصدقائهم — بسر الطريقة التي يرتكبون بها جرائمهم. ويخيل اليهم اجرامهم ان لا حرج في هذا ولا وزر وهم يقولون: وهل يحرج الطبيب الذي يوصي لتلميذه بسر دواء ابقاه طي الكتمان طوال حياته؟ وهل يحرج المؤلف الذي يوصي بنشر رسالة مخطوطة من رسائله؟

وهناك الداعرون الخليعون الذين يوصون باعترافاتهم بما ارتكبوا من جرم وما اقترفوا من إثم. وقد يتوهم الواهمون ان دنوّ الاجل يجعل المرء اقرب الى العقل والحجى. ولكن الامر هو على العكس. فان دنو الاجل — على ما يظهر — يحرم المرء من نعمة الذكاء والفهم، ويجعله عنيداً متعسفاً قصير النظر.

وبعض الناس يظن انه وقد حانت منيته فان له السلطة التي لا حد لها — واستغفر الله — في ان يعزّ، بعد موته، من يشاء، وان يذلّ من يشاء.

عن الانجليزية

القاهرة — مبارك ابراهيم

الى مَ يا بلد الاشعاع

تدور الارض دورتها، ويعقب الليل النهار، ويبسم فصل ويفترّ آخر، ويظلم فصل ويتجهم فصل، والانسانية في مسيرها تجدّ، تدرس وتستكشف، تفكر وتعمل ولكن أين؟

في الغرب فقط واما في الشرق فماذا؟

في الشرق تغنٍّ بامجاد ماضية، نرويها على ذمة الرواة، وقد طوتهم الايام، ومشت عليهم السنون وذكر الامجاد في بطون الصحف، نتلوها فيستفزنا القول فننشد :

اولئك آبائي فجئني بمثلهم
اذا جمعتنا يا جرير المجامع

فنتغنى وننشىء المقالات وننظم القصائد ونقف ونخطب فيصفق لنا السامعون وماذا بعد؟ نسكر من زبيبة ونطرب لطنين ذبابة، نستجلي صفحة الماضي وننام مطمئنين ساكنين، نعيش بالاحلام ونقضي الحياة بالآلام، يستهوينا التصفيق فننتفخ ونقول: كنّا وكنا، وماذا بعد؟

اننا مشينا على الزمن فخضع لنا، وانقادت لنا الايام، وكان مغرب الشمس موطىء اقدامنا، فجمعنا بين المشرق والمغرب وبسمت لنا الاحقاب وافترّ وجه الغابر، وها نحن بماضينا نفاخر، مطمئنين الى الراحة، نغط بسكرة المجد. واما الايام فتطوى والعقل البشري يخترع ويبدع، ولكن اين؟

في الغرب وفي الغرب وحده، واما في الشرق، فلنا الاحلام لنا الخيال، لنا الجنان، نعيش في الماضي مفاخرين، ونخضع للقوة صاغرين، ويكفي ان نقول كنا وكنا، لقد وفينا قسطنا للعلى فلننم على وساد من حرير، في بلد الاشعاع، في لبنان بلد الشعر، بلد الخيال، بلد الاحلام، بلد الجمال، بلد الماء والخضراء، فمن شواطئه حملت الابجدية، فكانت مبدأ لابجديات لغات العالم اجمع، وماذا بعد؟ لا شيء، هذا يكفينا، فقد ملأنا الارض طولا وعرضاً بالتتايه، نفاخر ونفاخر بعمل قديم وقديم جداً، تناسته الايام وحفظته بطون الكتب، فصحّ فينا :

الهى بني تغلب عن كل مكرمة
قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

وما زلنا نحوك القول تلو القول، وندبج القصيدة تلو القصيدة، والخطبة يتصل بعضها برقاب البعض، حتى تُخمت الدنيا من هذا الفخر الذي لاكته الالسنة كثيراً ومجته النفوس، وصار ترداده مهزأة، وما كثر ترداده ابتذل ومُرَّ به مرور الظل على الاديم

فكرت في هذا كله وساءلت نفسي ما كنا نفعل، واي قصيدة كنا ننظم لو ان مخترع الاوتوموبيل والطيارة ومكتشف النفط والبنزين والكهرباء والراديو والرادار والطاقة الذرية والهدروجينية كان لبنانياً او شرقياً، ترى، أكانت تسعنا الارض، او تكفينا صحف العالم لنكتب عليها ما نكتب. ولكن نحمد الله الذي لم يكن منا فرادي ولا اديسون ولا ماركوني ولا مدام كوري وباسكال، ولا ولا . . . لاننا كنا ملأنا الارض فخراً وتبجحاً.

والآن يا بلد الاشعاع، متى تطوي صفحة الاقوال الفارغة؟ وتقلد الغرب الذي يرينا في كل يوم جديداً، ونحن نغطّ باحلامنا ونستيقظ على قصيدة او خطبة، والغرب يحلم فيستيقظ عن عجيبة محسوسة، يقذف بها العالم، فيتلقاها بالدهشة والذهول.

فالى مَ يا بلد الاشعاع تغطّ باحلامك ومتى تستيقظ، لتعمل من الارض والماء والهواء، قصائد وخطباً محسوسة ملموسة؟

متى يا بلد الاشعاع ومعلم العالم ترحم النشء؟ فلا تعوّده الاحلام، والسكر من زبيبة والاطراب من طنين ذبابة، ومتى توجهه توجيهاً علمياً صحيحاً، يكون من ورائه المستكشف والمخترع والمبدع؟

لقد ملأنا الدنيا اقوالا سمعها الغرب فابتسم، ونفحنا بقصائد وخطب هي هذه المخترعات التي نراها بأم العين. ونلمسها لمس اليد. فاصبح معها البعيد قريباً.

ألا يا بلد الاشعاع! متى تطوي صفحة الماضي وتعمل للمجد الآتي. وتترك للاحفاد ما يتغنون به؟ وقد ختمنا نصف قرن بخطب وقصائد فليكن النصف الآتي مخترعات واكتشافات، وان صعب علينا هذا فليكن توجيهاً اليه.

ولقد آن لنا ان نلتفت قليلاً عن روائع امرىء القيس بعنيزة واضرابها، والاخطل وخمره، وبشار وشبقه، وبشير ومطامعه، ونستنطق الارض والماء والهواء. ففيها القصائد المرقصة، المحيية وفيها الاعتزاز بالفعل لا بالقول

ولقد حان لهذا الشرق ان يفهم ان الزبيبة لا تسكر وطنين الذبابة لا يطرب.

فدع الامويين ومطامعهم والعباسيين وجواريهم. فبلد الوحي، بلد الاشعاع، بلد الفكر، بحاجة الى ان يكون بلد الحديد، بلد الذرة، بلد الهيدروجين، بلد المعامل، بلد المختبرات العلمية، لا بلد الخضرة والماء والشكل والحسن، فالخيال يُميت والمادة تحيي، ونحن لا نحسّ غير المادة ولا نشعر الا بها فلِمَ الخيال والى مَ التبجح والفخر بمن مضى ونحن كما نحن؟

عيسى ميخائيل سابا

السيول والعنقاء

بقلم جبرا ابراهيم جبرا

استاذ في الآداب من جامعة كمبردج

☆☆☆

قصة

لعل أحد الاسباب التي كانت تزيد من حبي « لشيلا »، أيام كنا في كمبرج ، هو أنها كانت في الرقص أمهر فتاة عرفتها في حياتي. فقد كانت فيها خفة وانطلاق اذا ما راقصتها كخفة الريح وانطلاقها. وكنا في ايام غرامنا الاولى قد اكثرنا من الرقص الى حد الاسراف، ولكنه اسراف لا ينتهي الا الى اللذة، كالاسراف في العلم: وذلك اننا كنا نبتدع الخطوات ونضبط دقائقها ، وقد أدركنا ان حركات الاعضاء انما هي لغة اخرى نعبّر فيها عن خلجات النفس. وكان هذا ابداً دأبنا: نحن لن يكفينا الشعر وصفاً لهوانا ، ولا النثر الذي ملكنا ناصيته في رسائلنا الكثيرة ، لا ولا الموسيقى التي كنا نصغي اليها بكثرة !

— لا بد من الرقص ايضاً وصفاً جديداً ، وصفاً ينطلق الجثمان به في جو مملوء بالاحاسيس والنشوات ، كأنه جو صوفي يشعر المرء فيه بالاتصال بالقوى السماوية . . .

فاذا ما اشتدت الموسيقى في صدحها وتفننت في ايقاعها ، جعلنا — ونحن بين مئات الراقصين— ندور وندور كأننا زوبعة دوامة لن يوقفها شيء عن دورانها، ثم نبطىء بالدوران، ونجدنا رويداً رويداً قد انطلقت ارجلنا في خطوات متسعة ترسم بظلالها على ارض القاعة زخارف عجيبة .

قالت شيلا، وبعض شعرها الطويل فوق عينيها : « لن يصدنا شيء عن الرقص معاً — أليس كذلك ؟» قلت : « بلى يا عزيزتي».

— لا الاقارب ولا غير الاقارب ؟ — بلى !

— لا الارض ولا السماء ؟ — بلى ! بلى !

وومضت عيناها ذلك الوميض الذي ينم عن تصميمها الذي لا يتزعزع ، وقالت : « ولن تعير تلك الشقراء اي اهتمام ؟».

فقلت متجاهلاً : « اي شقراء ، يا عزيزتي ؟»:

— تلك الشقراء التي هي الآن ورائي ، ذات الاظافر الحمراء.

وكانت تلك الفتاة في الواقع تعرفني معرفة قليلة ، فهي تعمل في احدى المكاتب الكبيرة حيث كنت ابتاع اكثر كتبي. قلت: « لا انكر يا شيلا انها ترجي الي نظرات غريبة ».

—نظرات غريبة! من امرأة؟ ليست تلك الا نظرات الشهوة.. نحن النساء نفهم مثل هذه النظرات اكثر منكم معشر الرجال .

قلت ضاحكاً. « اذن فلتذهب الى الجحيم ! ».

— وبئس المصير ! ولن تنظر اليها ثانية : ولا الى اي امرأة اخرى ! انت لي . فاهم ؟ — يا للانانية يا حبيبتي !

— في كل شيء اوثر الناس جميعهم على نفسي الا — فيك ! فأنا فيك اشد الناس انانية. جميل! — أجل يا شيلا ؟ — اتظن ان احداً عشق مثلنا ؟— لا لست اظن احداً يستطيع مثل كل هذا العشق.

اتعرفين خبر «ابيلارد وهلويز»؟ — نعم ، نعم. فقد اعتدى عم هلويز على خليلها ابيلارد بصحبة احد المجرمين، وقضى على رجولته.

— ولكن هلويز لم تزدد الا تعلقاً به .

— ولبست مسوح الراهبات حزناً عليه ، وكتبت اليه اجمل الرسائل الغرامية في الدنيا . . ولما مات بقيت وفية له اكثر من ثلاثين سنة . . ثلاثين سنة يا جميل! ولما ماتت هي ايضاً . —دفنوها في قبره.

— اتظنين سنخلص في حبنا مثلهم؟ ولم تتردد شيلا في جوابها الحازم : « بل واكثر ، اكثر ! ».

فضحكت وقلت : « ارجو ان يكون نصيبنا خيراً من نصيبها»

واسترسلنا في الرقص الصاخب، واستشهدت شيلا بقول سليمان: « الحب قوي كالموت . المياه الدافقة لا تطفىء الحب ، ولا تستطيع السيول ان تغرقه » . .

وذهبنا الى الغرفة المحاذية لقاعة الرقص حيث المرطبات، واذا صديقي الهندي ، الكومار كمل داس ، مع صديقته مورين . وما ان وقعت عيناه علينا حتى دعانا الى مائدته .

وكنت اعرف مورين فحييتها ، وقام كمل بتعريف شيلا بصديقته ، ثم قال: « متى جئت يا شيلا ؟». — منذ حوالي اسبوع.

— ولم تزوراني طوال اسبوع بكامله ؟ متى كنت هنا آخر مرة ؟

— منذ اكثر من ثلاثة اشهر. أنسيت العشاء اللذيذ الذي دعوتنا اليه ؟

فضحك وقال: «كدت أنسى اشياء كثيرة منذ ان عرفت مورين»
فضحكنا وقالت له مورين: «أرجو عفوك يا عزيزي اذا كان لي هذا الاثر السيء عليك».

فسألني: «ما رأيك يا جميل؟ أأعفو عن هذه المخلوقة؟»

كان كَمل اميراً هندياً، ولقب «كومار» الذي يسبق اسمه يعني ذلك. غير أنه، كـكثير من ابناء طبقته الهنود، كان يخفي ذلك عن اكثر معارفه، كما انه باعتناقه المبادىء الاشتراكية في السياسة (وكان له ولع عجيب بها) كان يدعو الى الديموقراطية والتساوي المطلق: كانت له عينان دعجاوان، ووجه متناسق التقاطيع خفيف السمرة، ترتسم عليه ابتسامة سمحة تنم عن حبه المكنون للحياة والناس. اما مورين، فكان قد وقع في هواها قبل عدة اسابيع. وكنت في اول الامر اشك في نواياها اذ تبدي له الود، غير انني ادركت فيما بعد انها كانت تبادله الحب. بيد انني لن انسى يوم جاءت الى غرفتي ذات مرة لتروّح عن نفسها بالبكاء، لان كمل كان قد اهانها في لحظة من لحظات الغيرة. وكان من قبيل الصدفة ان جاء في تلك الآونة هو ايضاً، فلما رآها عندي امتقع لونه... الى ان اوضحت له في شيء من الصعوبة السبب في وجود مورين بين جدران غرفتي. ثم تسامحا وتعانقا، فسررت لذلك وقلت: «انكما الآن تستحقان شيئاً من الشاي.»

تذكرت ذلك، فالتفتّ الى شيلا وقلت ضاحكاً:

«لم يقع كمل في احابيل فينوس الا حديثاً...»

فقال: «ويا لها من احابيل! ولكننا نتمتع في عذابنا، أليس كذلك يا مورين؟» فاحمرّ وجه الفتاة المسكينة وقالت: «قل ما يحلو لك. لن اعلّق على ما تقول بشيء!»

وفيما نحن كذلك، سمعنا صوتاً لم نكن لنخطئه قط — صوت جون بيترز يقول: «يا لعصر الانحطاط هذا! انظري كيف يتهافتون على المسكرات، رجالا ونساء!»

فاذا هو يخاطب صديقته «جين» على بعد قليل منا. فلما دعوتها الينا تقدم نحونا في شيء من الثالة، وقال: «انظروا كيف يتهافتون على الخمر، ثم يجلسون لمطارحة الغرام وبحث المشاكل الفلسفية معاً. واكثرهم يفضلون الفلسفة على الغرام. يا للانحطاط!»

وفي تلك اللحظة انفجرت «الجاز باند» بلحن عنيف الايقاع فأخذ جون بيد رفيقته وقال: «سأراكم فيما بعد»، واندفع الى قاعة الرقص. وحذوت انا وشيلا حذوه، ورقصنا بحماس شهي، حتى اخذ عرقي يتصبب على وجهي، وشيلا تضحك مني لأنها لا تعرق مثلي. وسألتني شيلا: «من مورين هذه؟»

فأخبرتها بأمرها مع كمل، فقالت: «مسكينة!»

قلت: «اجل، مسكينة ومسكين كمل ايضاً. فالهندي في انكلترا، مهما كان ثرياً، اشقى مخلوقات الله، والويل له اذا أحب»

— والويل للفتاة التي تحبه. فسوف يقاطعها كل من يعرفها.

— انني كثيراً ما ارى في حب كمل ومورين رمزاً لضرب من ضروب الحب، هو اكثرها بؤساً واملؤها شقاء. هذا الحب بين جنسين من الناس مختلفين كل الاختلاف. — ولكن حباً كهذا يختلف عن حب انكليزية لايطالي او عربي مثلاً.

فأدركت ما ترمي اليه من ان سمرة الهنود الشديدة هي العائق في هذا الحب، غير انني قلت: «بل حبنا ايضاً ليس بالامر الهين.»

فغضبت لذلك وقالت: «هراء! ان اكثر صديقاتي يحسدنني عليك» «وانا افاخرهن بك واتمنى لو ارى عيونهم تتفقأ حسداً... ولكنه تعصب احمق تأصل في اكثر الناس، اذ يظنون ان الشرقي من غير طينة الاوروبي، وانا لن اوازي عشرة اوروبيين بظفرك.»

فدرت بها حين قالت ذلك دوراناً سريعاً لبضع لحظات، ثم عدنا الى البطء في الحركة وقلت: «ولكن ذوي وأهلي لا يعتقدون ان فتاة تحت الشمس تصلح لان تكون زوجة لي، الا اذا كانت من بنات جنسي». فقالت: «كلنا في التعصب والحماقة سواسية».

كانت هذه في الواقع المشكلة الكبرى التي علينا ان نحلها. فأنا وشيلا عازمان على الزواج حالما ننهي دراستنا، ولكننا لسنا طليقين من كل قيد فنستطيع ان نفعل ما نشاء. فذوي في بلادي غير راضين عن زواج مثل هذا، تداخلهم في امره شكوك متباينة ففي رسائلهم الي اراهم يتساءلون: أتستطيع المرأة الانكليزية الحب حقاً؟ (ولا يخفى ان مقاييس الحب وان تتفق في جوهرها تتباين في بلادنا وبلادهم.) أتستطيع الاخلاص والوفاء؟ أتعنى بزوجها في المرض وترفو جواربه؟ او ليست قاصرة همها على ملاهيها وزينتها؟ الى آخر ما هنالك من الاسئلة التي تنم عن شكهم العميق في ان زواجي من شيلا سيكون في صالحي، او صالحهم.

واما من ناحية ذويها فالريبة ليست باقل. فهم يتقولون: من يدري كيف يتصرف الناس هناك؟ الا يحملون الخناجر على خصورهم، ويخفون الحريم في اعماق بيوتهم؟ وكيف تسعدين وليس حولك من ينطق بلسانك الا زوجك؟ ليس الزواج ان تقيم المرأة مع زوجها فقط، بل ان يقيم كلاهما في وسط ملائم لهما. الخ الخ.

اما نحن فكنا واثقين من ان هذه المخاوف ليست الا اوهاماً

يختلقها ما في الجماعتين من محافظة وكره لما هو اجنبي عنهما. فكلنا – كما قالت شيلا – في التعصب والحماقة سواسية . وانى للاهل ان يدركوا حدة النيران المندلعة في صدرينا ، واللذة الجارفة التي تجتاحنا كلما كنا معاً ؟ وهل يأبهون للمشاعر الفتية التي جعلت تترعرع في نفسينا ، حين أخذنا نرى ما في الحياة من روعة ، وما في الطبيعة من سحر، بل قد خيل الينا ان كلا المجتمعين لو استطاع لمنع عنا تلك المشاعر، ولاغلق عيوننا قسراً عن تلك الروعة وذلك السحر.

وعندما عدنا الى المقصف كان جون بيترز كدأبه يتدفق حماسة وهو يتحدث الى كمل ومورين . وسمعته يقول :

« هؤلاء الراقصون ، الذين تراهم يتصببون عرقاً وعاطفة ، في استطاعتهم ان ينقلبوا في طرفة عين الى وحوش ضارية . الناس اذا تكتلوا في مكان واحد ينحدرون من انسانيتهم نحو الحيوانية».

فسألته : « هل اكتشفت نظرية جديدة عن الفرق بين الفرد والجمهور ؟ »

فأجاب : « كلا : انما انا اطبق النظرية القديمة كل يوم تطبيقاً جديداً. لقد توصلت الى حقيقة لا مفر منها : المجتمع اقبح ما خلق الله على الارض ! »

فقالت مورين : « اتقول ذلك ، وانت لا تستطيع ان تحيا ساعة واحدة بعيداً عن الحفلات والمجتمعات ؟ »

فقال : « أنا يا عزيزتي ضحية اهوائي . انني اعشق ما اكره . لقد كُتب عليّ ان اجد لذة حين اتمرغ في الاوحال التي ازدريها . . . »

فضحك كمل وقال : « انه من حسن حظك ان لم تسمعك جين»

فقال جون على الفور : «او تظن انني كنت اتعلق بها لو لم اكن اشتهي ان ادق عنقها بيدي ؟ » ثم سدد نظرة سكرى الى شيلا وقال مداعباً : «ارجو يا شيلا انك لا تتعلقين بجميل لانك تكرهينه؟»

فأجابت : « اوه . . اني اكرهه . . . ولكن كيف اتخلص منه؟»

فضحكت قائلاً : « ولو تخلصت مني ، لما تخلصت من طيفي الذي يلاحقها. اسمعوا : ما رأيكم في الهرب من هؤلاء الوحوش الضارية الى غرفتي؟» فسألني جون : «اذا كان عندك شيء من الخمر . . . »

فقلت وقد قاموا تلبية لدعوتي : « لست اظننا سنموت عطشاً»

***

ولما تم لنا الجلوس في غرفتي كان جون – وقد ازداد انطلاق لسانه – ما زال يتحدث عن المجتمع .

قال : « طبعاً من الخطأ ان نطلق كلمة « مجتمع » على جمهور من الراقصين . فاكثرهم رعاع ، لا يعرفون من الحياة الا بضع غرائز .

ماذا تظن يريد الواحد – او الواحدة – منهم سوى مضاجعة زميله لو تيسر له ذلك ؟ طبعاً لن يقرّ الرعاع بذلك . ولكن بارك الله فيهم ! انهم ملح الارض . انهم يحافظون على نقاوة غرائزهم ، ولا يشوهونها بالفلسفات والمسائل الذهنية . وهكذا يحافظون على بقاء الانسانية . الانسانية ؟ يا للكلمة الخرقاء ! شيلا ، بربك لا تتهميني بعينيك الجميلتين ! » فضحكت شيلا قائلة : « ولكنك يا جون تناقض نفسك . انك تمدح وتذم في آن معاً . »

فرفع يديه الجميلتين مستدركاً وقال : « اني امدح الرعاع حين اقيسهم بما سميناه بالمجتمع . المجتمع يا عزيزتي بما فيه من آباء وامهات واجداد وجدات ، واعمام وعمات .. المجتمع المبني على تقاليد ولدتها الخرافات .. المجتمع بما فيه من قوانين غير مدونة ، المبني على التكتل ضد الفرد المسكين .. المجتمع بما فيه من بوليس وقضاة ومحامين .. هذا البناء المتراكم بعض على بعضه ، والواقف في وجهي ووجهك ووجه جميل و كمل ومورين كأنه يقول : انطح برأسك جدراني اذا شئت ، لن تحطم الا رأسك ! هات يا جميل ما عندك من كونياك ».

وناولته كأساً ، كما ناولت الآخرين كؤوسهم ، والكومار كمل يقول : «أأنت ابن الجزائر البريطانية تقول هذا؟ فماذا اذن اقول انا عن مجتمع آخر ، تحجرت فيه العادات ، ونخرت في عرق حياته الخرافات؟ ان مجتمعكم ما زال فتياً اذا قيس بالمجتمع الذي ولدت انا فيه : وما زال في حياتكم متسع كثير للنمو والتغيير ، لان فيها مرونة الشباب ولكن من اين لنا نحن هذه المرونة ، وحضارتنا تقادم العهد بها حتى بلغت من العمر ارذله ؟ اننا في بلادي في شيخوخة مريعة » . .

فقلت متحمساً : « هون عليك يا كمل ، ولا تيأس . ان مجدكم القديم سيوحي اليكم بحياة جديدة . ففكرة البعث من الموت فكرة شرقية قديمة ، لانها من صميم الشرق : انه يموت فيحيا ثانية وحياته الجديدة اروع من حياته السابقة دائماً » .

فانبرى جون الى القول بصوته الجميل : « آه ، العنقاء ! ذلك الطير الذي خلقه خيال العرب .. يشيخ ثم يحرق نفسه ، واذا به ينتفض من رماده ويبعث فتياً قوياً ، ويحلق به جناحاه نحو الشمس ، ولكن طريقة اعادة الشباب في هذا العصر اقل جمالا بكثير : لا يحرق الشيخ نفسه ، بل يركب لنفسه غدد القرود على طريقة فورونوف ، فيبقى شكله على ما كان من غضون وترهل ووهن ، ولا يتنشط الا باعضائه التناسلية . هاها » !

فقال كمل : « واخشى الا يعود الشباب الى الشرق الا على طريقة غدد القرود – هذا اذا اتيح له ما يكفيه منها ! ولكن صاحبنا جميل لن يؤمن الا بالعنقاء . اما انا فلا اومن الا بما قاله شبنغلر : ليس لامة من الشباب الا فترة واحدة ولا بد لكل امة من الشيخوخة بعدها . واذا شاخت ، فلن يكون لسان حالها الا كما يقول ، الشاعر العربي : « الا ليت الشباب يعود يوماً . . ولكنه لن يعود ، يا جميل ، لن يعود – الا اذا وقعت معجزة من ربك ، وعصر المعجزات قد زال » .

فقالت شيلا ، وكأنها تدافع عني : « ان شباب الامم في افرادها . فالناس بمجموعهم قد يشيخون ، ولكن هناك افراداً في استطاعتهم ان يلهبوا الصدور بالحياة، ويقضوا على موت الشيخوخة. حينئذ تظهر الامة بمظهر جديد ولربما ظهرت باسم جديد ايضاً » .

فاجاب كمل : « ولكن الماضي يا شيلا – الماضي يأبى ان يموت . ولن تنبثق الحياة الجديدة الا اذا نسي الناس الماضي بمجده واكاذيبه : وما دام مجد الماضي ماثلاً فليس لقوة ان تقضي على تلك الشيخوخة القبيحة . . لشد ما احسد البريطانيين ، الذين كلما ذكروا الماضي ، لم تذهب انفسهم حسرات ، لانهم يرون الماضي في اسفل السلم ، ويرون انفسهم في اعلاه . اما نحن يا شيلا . . فكلما نظرنا الى الماضي رأيناه في اعلى السلم ، ورأينا انفسنا في اسفله » .

فقال جون : « اتحسد البريطانيين وهم في اعلى السلم ؟ اليس معنى ذلك انهم على وشك الانحدار ؟ اما انا فأقول : ليتني كنت بدائياً لا ماضي له . . ليتني كنت في عصر الغزوات الجرمانية ، او على الاكثر في القرون الوسطى : تلك كانت حياة الفرد وغرائزه الطليقة . هل من حياة في الشرق اجمل من حياة البدوي بنقاوة فطرته ؟ لنذهب جميعاً الى البادية ، ولنبدأ الحياة من جديد » !

فضحكت ملء شدقي وقلت : « روسو آخر ! لنعد الى احضان الطبيعة ! لنعد الى شمس البادية . . اما انا فأقول : لنوسع المدن » .

فأوقفتني مورين عن الكلام قائلة : « لحظة يا جميل ! » وارهفت السمع . ولكن لم تكن ثمة حاجة الى ارهاف السمع ، فقد انطلقت صفارات الانذار في جو الليل ، تولول بصراخ رهيب ، وان هي الا لحظات حتى كانت المدافع المضادة ترسل بقذائفها الى الاجواء الرحاب ، وهمهمة الطائرات الالمانية تسمع كالنذير بالويل .

فقالت مورين بعد صمتها الطويل : « اجل يا جميل ، لنوسع المدن لكي تحطمها القنابل . . . »

فنهض جون على قدميه وقال : « سنعود الى البادية شئنا ام لم نشأ . ستحطم القنابل المدن ، وتدكها دكا ، وتتركها قاعاً صفصفا ، هنا تصدق خرافتكم العنقاوية يا جميل – او لعلها تصدق . »

واذا بانفجار يدوي هبطت له قلوبنا ، وبدا الفزع على وجوهنا جميعاً . فاستأنف جون كلامه : « هذه العنقاء تحرق نفسها . . وداعاً . عليّ ان اكون في الدار في حالة الغارات ، فالواجب يدعوني كما تعلمون . العنقاء تحرق نفسها – هاها ! واذا ما مزقت جسمي الشظايا ، انطلقت من اشلائي روح جديدة في جسم فتيّ جديد . . . » ودوى انفجار آخر . « ويحلق الجناحان بها نحو الشمس . . . يا لحماقة البشر . . . » وخرج .

اما انا ففي الحال تلفت نحو شيلا ، وامسكت بيدها . فنظرت اليّ بعينيها الواسعتين نظرة اختلط فيها الحب واليأس والشجاعة – غير ان الخيالات القديمة عاودتني ، فرأيتها مرة اخرى تراكض ظبية في حقل مزدهر قرب النهر ، واذا جماعة من الفرسان يهاجمونها ، ولعلهم يضربونها بالسياط ، ثم يحملونها على فرس وقد تدلى رأسها ، وشعرها الذهبي مسترسل في الفضاء . . : وتوالت حينئذ انفجارات قريبة وبعيدة ، فتمتمتُ :

« شيلا ، لا تخافي . لن تقوى كل طائرات الالمان على تحطيمنا ! » فقالت مبتسمة : « اني لا اخاف . ولكنني اكره هذه الغارات التي لا تنتهي . » وقالت مورين : « لقد تهدمت البلدة التي اتيت منها ، حتى ما عدنا نعرف اين كانت الشوارع واين كانت البيوت . »

وارسلت المدافع المضادة حممها الى الاعالي مدوية ، وقال كمل :

« يخيل اليّ ان هذه الغارات الجوية اشبه بالقوى المدمرة التي تهاجم الانسان من حيث لا يريد . فالانسان مهما فعل ، ومهما كان صالحاً لا بد ان تفاجئه قوى معادية تبغي القضاء عليه – مادياً او روحياً » ثم ضحك واردف : « ولكنك لن تسمح لقوى الشر ان تقضي عليك يا جميل ، أليس كذلك ؟ » قلت : « من يدري ؟ غير انني اشعر بأن ليست هناك قوة على الارض تستطيع ان تدمرني روحياً . ففي روحي عناد الجبابرة » ولما قلت ذلك احسست بقوة فجائية من الحماس ، غير انها لم تدم طويلاً حين ارسلت بصري حولي في الغرفة ، ورأيتنا اربعة جالسين لا نستطيع رد شظية صغيرة لو ارادت ان تستقر في احشاء احد منا . فسخرت من نفسي صامتاً ، ولا اعرف ما جال في انفس جلسائي من خواطر .

لم يقل احد منا شيئاً يذكر . وبعد قليل بطلت الانفجارات ، وتنفسنا الصعداء ، حين انطلقت الصفارات معلنة مغادرة الطائرات المعادية

بعد حوالي سنة بلغنا نعي جون بيترز : فقد قتل في طائرة اثناء غارة جوية على احدى المدن الالمانية .

بغداد

جبرا ابراهيم جبرا

من روائع الفن

قصر العدل في بروكسل

بقلم الدكتور عدنان الخطيب

صفحة من ذكريات اوروبة تهدى للصديق الدكتور مصطفى البارودي

لكل عاصمة من العواصم في العالم ما يجملها في اعين ابنائها، او ما يدعو ابناء الدولة للافتخار بها، واذا ا ضمت شيئاً من ذكريات الامجاد الوطنية رأيت قلوبهم قد تعلقت بها فقدسوها واعتزوا بها، وقد يشاركهم في عواطفهم نحو عاصمتهم ابناء دول اخرى وقوميات مختلفة، وقد يتفق الناس في نظراتهم الى بعض العواصم، مهما اختلفوا، كما اجمعوا على روعة باريس، وجلال روما، وعظمة لندن، وجمال بروكسل.

وبروكسل هذه هي عاصمة بلجيكا ويلقبها الناس والاوربيون منهم بصورة خاصة، « بباريس الصغرى » لانها تكاد تشبهها في كثير من نواحي جمالها واناقتها، وليس هذا الشبه ميزتها الوحيدة، وان كان من اسباب شهرتها، اذ فيها من روائع الفن والجمال ما هي منفردة به، فهذا قصرها العدلي يستقبل الناس قبل ان يصلوا اليها ويرشدهم الى عظمتها قبل ان يروها، انه مفخرتها التي يتيه بها كل بلجيكي، ويعتز بها كل قاض ومحام، ويعجب بها كل انسان يعرف للجلال قيمته وللفن روعته.

لقد زرت قصر العدل في بروكسل، واطلعت على جوانب كثيرة من عظمته، ثم سجلت زيارتي هذه الى جانب اخوات لها، وعلى صفحات « الاديب » سيجد القراء بعض ما سجلت ولعلي مستطيع حمل بعضهم على متابعتي، فيتحققون بانفسهم صدق ما قدمت ثم لعلهم يشاركونني بعض الاعجاب والمتعة.

ولا بد قبل كل شيء من الاتيان على بعض المعلومات المجملة اذ لا غنى للزائر عنها، ان احب ان تكون زيارته شبه كاملة، ولن استطيع القول بكمالها.

معلومات عامة

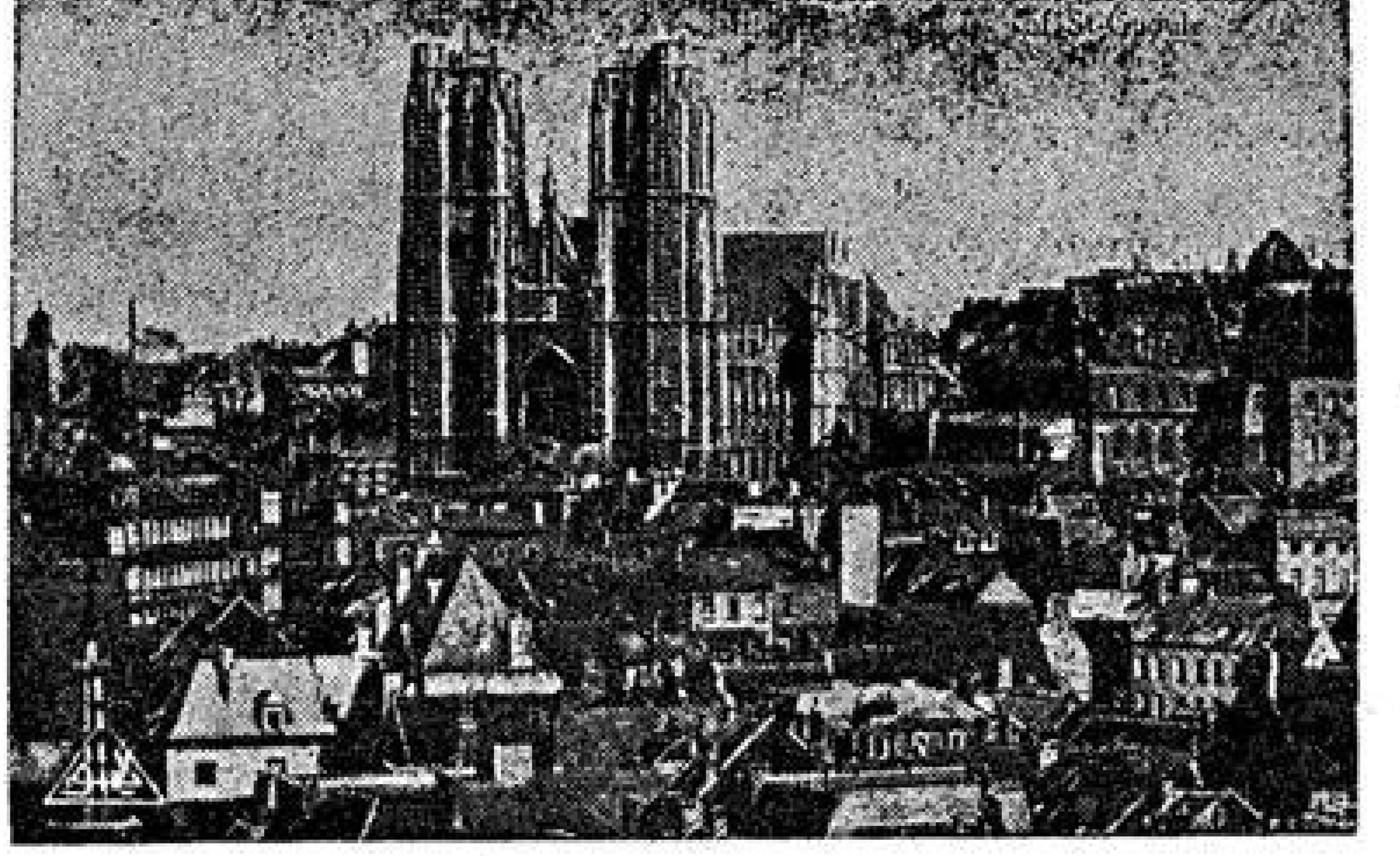
يعتبر قصر العدل في بروكسل افخم قصور العدل في العالم، على كثرة الفخم منها، وهو من روائع الفن المعماري في القرن التاسع عشر، ومن اشهر ما اقيم خلاله في اوروبة من مبان وعمارات. ولقد بلغت نفقات بنائه خمسة واربعين مليوناً من الفرنكات البلجيكية وكان انشاؤه قد تقرر سنة ١٨٦٢ ايام حكم الملك ليوبولد الاول، ولكن البدء فيه لم يجر قبل سنة ١٨٦٦ بعد ان كان الملك ليوبولد الثاني قد تولى العرش البلجيكي، ولم يدشن بناؤه الا سنة ١٨٨٣ اي بعد سبعة عشر عاماً من البدء فيه.

لقد انشىء القصر على رابية تتوسط بروكسل تقريباً، وهو يكاد يكون مربع الشكل، اذ يبلغ ضلعه الطويل ١٦٠ متراً والآخر ١٥٠ متراً، يضاف الى ذلك اجنحة بارزة، وقد بلغ بروز جناحي الواجهة الرئيسية ٢٥ مترا، كما بلغت مساحة ارض القصر ٢٦٠٠٠ متر مربع بما في ذلك مساحة ثماني مساحات بلغت ٦٠٠٠ متر مربع.

ويحوي القصر ٥١٦ محلاً، منها ٣٨ قاعة للمحاكمات، و ١٥ مستودعاً للوثائق، وثماني مكتبات، و ٨٠ ديواناً، و ٦٦ غرفة منفردة، وقد ناف المعدل الوسطي لرواد القصر على ٥٠٠٠ شخص يومياً.

ولقد استنفد بناء القصر ٣٦٠٠٠٠ متر مكعب من مواد البناء. وهذه الكمية الهائلة تكفي لاقامة سور ارتفاعه ثلاثة امتار يمتد من دمشق حتى بيروت، ويحتاج نقلها الى اكثر من ٦٥٠٠٠ عربة، حمولة الواحدة عشرة اطنان.

وبلغت كمية الحجر المنحوت التي انفقت في البناء ٦٠٠٠ متر مكعب وهي كمية تكفي لبناء برج مربع اصم، ضلعه عشرون متراً وارتفاعه ١٥٠ متراً. ومن اجل الصعود الى قبة القصر الشاهقة، والتنقل بين طبقاته العديدة يوجد ٩٤ سلماً حجرياً مجموع درجاتها



من مناظر بروكسل وقد ظهرت كنيسة سانت كودول الفخمة

٤٣٢٠ درجة ، الى جانب ٤١ سلماً خشبياً لها ٦٣٠ درجة ، و٢٩ سلماً حديدياً لها ٩٩١ درجة، ومجموع هذه الدرجات فيما لو اتصلت ببعضها لبلغت بصاعدها الف متر علواً .

وفي القصر عدة مصاعد كهربائية ويبلغ عدد المصابيح التي فيه ٤٦٠٠ مصباح كهربائي. وهو يدفأ تدفئة مركزية تستهلك في ايام الشتاء ستة اطنان من الفحم يومياً .

ويقوم على العناية بالقصر من الناحية العمرانية رتل من الموظفين الفنيين يبلغ ٧٥ شخصاً منهم الحراس والخدم وعمال الكهرباء والنجارة والحدادة والبناء والتدفئة والاطفاء ، وكلهم يعمل تحت اشراف رئيس اعلى يدعى « محافظ العدل » وهو مهندس من كبار موظفي وزارة الاشغال العامة وله دائرة في القصر فخمة الاثاث وعنده ديوان ومساعدون .

هذه هي معلومات موجزة تعطي القارىء فكرة عامة عن عظمة التصميم ، وضخامة البناء وروعة المنظر ، اما زيارة القصر فتحتاج الى وقت طويل وقد لا تكتمل زيارته ولو تعددت ، اذ سعة الوقت من عناصر الزيارة الكاملة لا لكل عناصرها، ومن سكن بروكسل شهراً او سنوات يعرف هذا ويقره ، واكثر رواد القصر يكتفون بزيارة اقسامه الرئيسية كقاعة القبة ، وصالات محاكم الجنايات والاستئناف والتمييز ، واني سأصف زيارتي لهذه الاقسام وسأقف لحظات في بعض الاروقة والممرات ، متمتعاً بما فيها من جمال وجلال ، وبما فيها من ترف في اروع مظاهره الحديثة .

رواق المدخل الرئيسي

لنقف لحظة قبل الباب الرئيسي لنمعن في عظمة الرواق الذي يضمه ، اذ تبلغ سعته ١٧٫٥ متراً وارتفاعه ٣٩ متراً ، وهو يستند على رواقين جانبيين كبيرين يتجاوز طول كل منهما ٣٠ متراً ، وقد توج بتمثال لآلهة الحكمة والفن « مينرفا » من صنع المثال « دوكاجو » .

ان فراغ هذا الرواق الشاهق انما يتسع لعمارة فخمة مؤلفة من ستة طوابق ، فتأمل !..

تمثال جوزيف بولرت

ان العقل الرياضي الجبار الذي ابدع القصر ووضع تصميمه واسسه ، ليستحق منا الوقوف برهة قبل ان نلج الباب نتطلع الى التمثال النصفي الذي اقيم على يسار الداخل « لجوزيف بولرت » ! انه من بروكسل نفسها ، وقد توفي فيها سنة ١٧٨٩ عن ٦٣ عاماً ، اذ عاجله الموت فسبقت وفاته تدشين القصر باربع سنوات ولكنه خلد نفسه مع القصر ومع كنيسة « ليكن » وعمود « الكونغرس » اذ كانتا من تصميمه وابداعه .

الباب البرونزي

والآن نحن على عتبة باب القصر ، وهو باب من البرونز له شهرة عالمية ، وضع تصميمه المهندس « فان مانسفلد » واتقنت صنعه « شركة البرونز » الشهيرة ، ارتفاعه ١٠٫٣٥ امتار وعرضه ٤٫٣٥ امتار ، ويبلغ وزنه ١٥٠٠٠ كيلوغرام ، وهو أوسع باب من نوعه في اوروبة ، وقد فاق بفخامته حتى باب « البانتيون » في روما ، وابواب « كنيسة المادلين والبانتيون وقصر العدل » في باريس .

لقد بلغ ارتفاع درفتي الباب ٧٫٦٠ امتار ، وعرض الواحدة منهما متران ، ووزنها ٦٠٠٠ كيلوغرام تقريباً ، ورغم هذا الوزن الهائل فان الباب يفتح وينغلق باكثر سهولة ممكنة التصور .

دوائر القصر العديدة

ها نحن قد اجتزنا الباب البرونزي واصبحنا في الممر الاول حيث يلج المرء الى ممرات اخرى توصله الى الدائرة التي يبغي الوصول اليها ، ولكن كيف تتسنى له معرفة الطريق الموصلة اليها ؟

منظر عام للقصر من ناحية شارع مينيم ويبدو فيه السلم الكبير





قصر العدل في بروكسل من ناحية الباب الرئيسي

فيقف اذن امام هاتين اللوحتين الكبيرتين المضاءتين بالكهرباء والبالغ ارتفاع كل منهما ثلاثة امتار ليقرأ اسم الدائرة التي يقصدها ولينظر كيف يجب ان يتجه نحوها .

ان القصر يضم محكمة التمييز، ومحاكم الاستئناف والجنايات، ومحاكم البداية المؤلفة من ٢٢ دائرة ، ومحاكم التجارة ، ومحاكم العمل ، ومحاكم صلح المناطق القريبة ، ومحاكم المخالفات ، ودوائر التحقيق والطب الشرعي والشرطة العدلية ، وفي القصر معهد للعلوم الجنائية ، وفيه ستة مكاتب لتحصيل الرسوم ، كما فيه مركز للبرق والبريد ومكتب للصحافة ومصور الى جانب مصالح كثيرة اخرى .

قاعة القبة

نحن الآن في القاعة الوسطى ، القاعة التي تعلوها قبة القصر الشامخة القائمة على قواعد واعمدة توحي المهابة لضخامتها ، ويبلغ طول هذه القاعة ٤٨ مترا وعرضها ٢٢ متراً ، ومساحة ارضها مع الرواق الموصل اليها تبلغ ٣٦٠٠ متر مربع اما ارتفاع القبة عن ارض القاعة فيبلغ ٩٧٫٥٠ متراً ، ويصعد الى ذروتها عن طريق سلالم عديدة مجموع درجاتها ٥٢٥ درجة ، ويبلغ قطرها ٢٠ متراً ، وهي مصفحة من خارجها بقشرة من الرصاص تزن ٦٤٠٠ كيلو غرام . ويقوم على زواياها الاربع العلوية من الناحية الخارجية اربعة تماثيل من البرونز ارتفاع كل منها ٥٫٥٥ امتار وهي ترمز بالتتابع الى القانون والعدالة والقوة والرحمة .

ان هذه القبة الجبارة انما تستند على ٢٤ قاعدة ترتبط معها بواسطة ١٧٢ دعامة يبلغ مجموع ثقلها ٤١٠٠٠٠٠ كيلوغرام ، وجملة هذا البناء الضخم يقوم على اركان اربعة احكم بناؤها فجعل اساس كل واحد منها على شكل هرم ارتفاعه ١٥ متراً ومساحة سطح قاعدته ١٠٠ متر مربع .

السلم الكبير

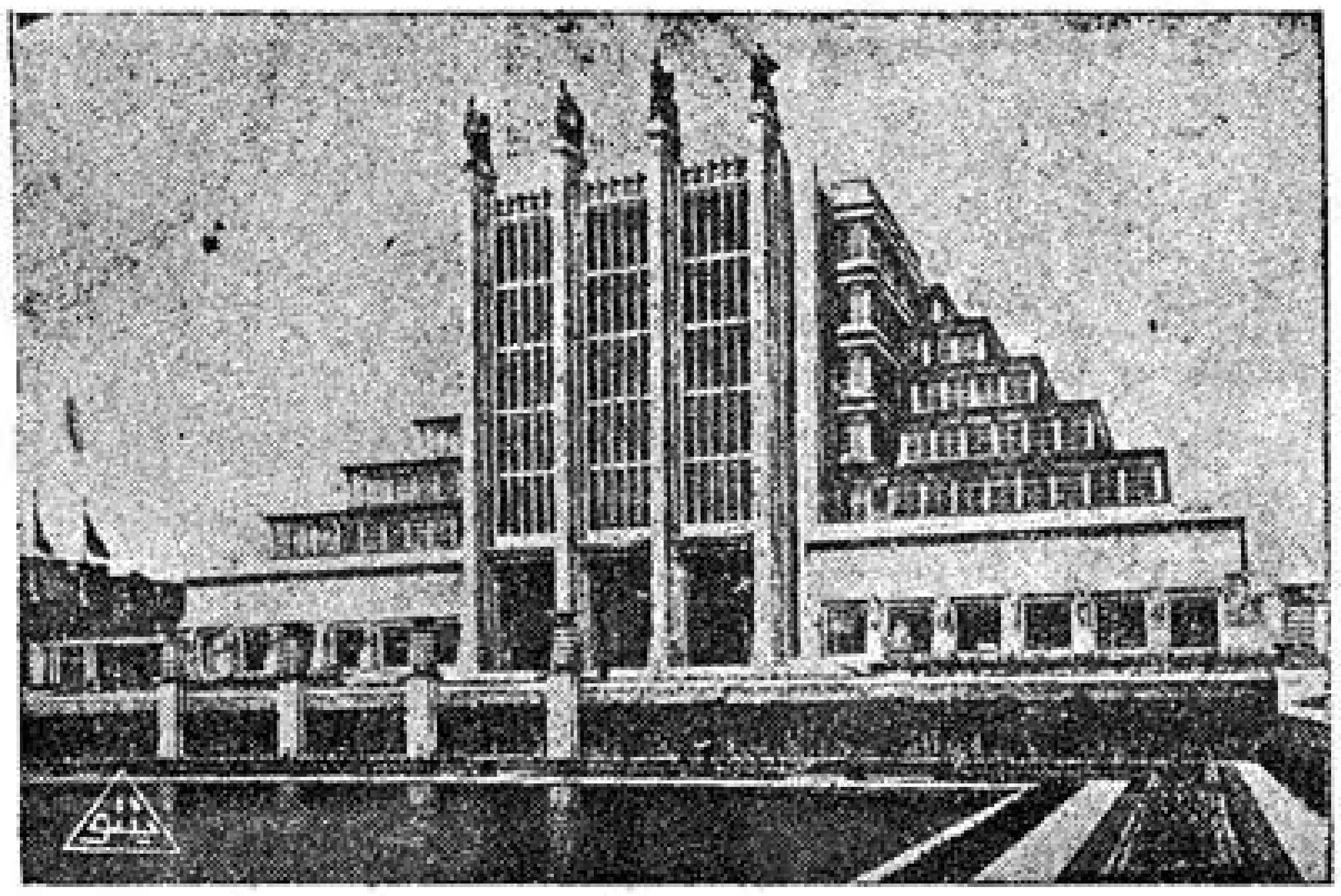
قلت لك ان القصر بني على رابية مرتفعة ، واهم مظاهر موقعه هذا انخفاض مستوى احد الاحياء الملاصقة له انخفاضاً بلغ ٢٠٫٥ متراً بالنسبة للطابق الارضي منه ، وهذا ما حمل مهندسه على ربطه بذلك الحي من ناحية شارع (مينيم) بسلم حجري يعتبر من افخم مظاهر القصر اذ بلغ امتداده الافقي ما يقرب من ٨٠ متراً وبلغت درجاته ١٧١ درجة .

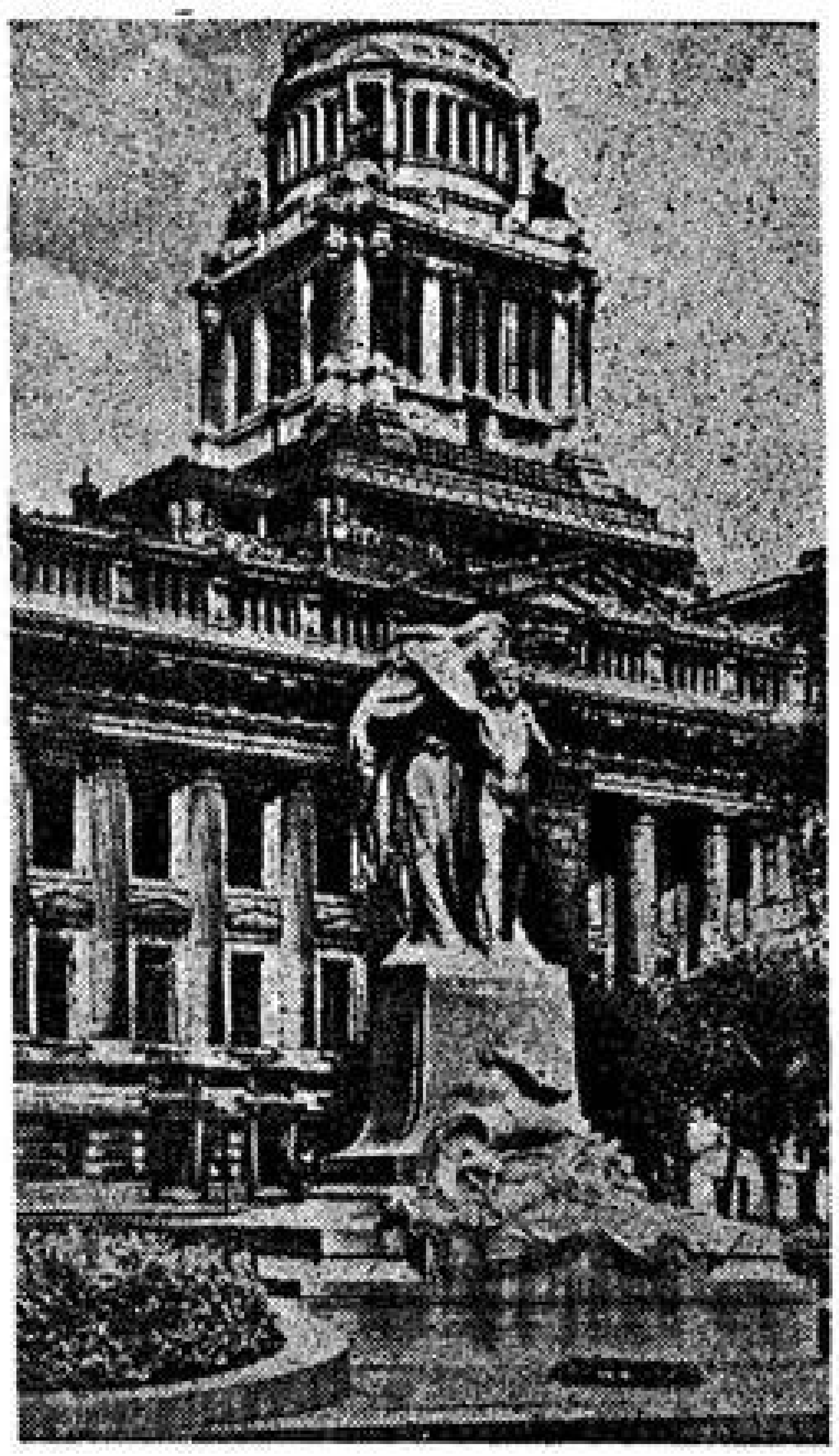
قاعة محكمة الجنايات

لست ادري كيف اصف لك قاعة محكمة الجنايات وانا لم ار فيها سقفاً ولا ارضاً الا حطاماً تراكم فوق بعضه ، والا جدراناً قد خلعت ثيابها بعد ان كانت مضرب المثل في فخامتها وروعة زخارفها يوم اضفى عليها فن التزيين مهابة وجلالا مرموقين ، وما وصفي لها بعد ان اكلتها النيران الا نقلاً عن محافظ القصر الذي صورها لي وزودني بالرسوم التي تؤيد تصويره .

يبلغ طول القاعة ٢٨ متراً وعرضها ١٢ متراً ، في صدرها رفعت منصة القضاة ، يتوسط قوسها مقعد رئيس المحكمة المنتخب بين كبار مستشاري محكمة الاستئناف ، ويحيط به قاضيان من قدامى قضاة محكمة البداية ، ويجلس النائب العام في اقصى القوس من ناحية اليمين ، بينما يجلس الكاتب الى جهة اليسار ، وتجاه الهيئة الحاكمة اقيم موقف للشهود الى جانب منضدة الادوات الجرمية وادلة الاثبات ، والى يمين ذلك قفص المتهم الى جانب محامي الدفاع تتلوها مقاعد محامي الادعاء الشخصي يقابل هذا من الجانب الايسر مقاعد المحلفين الاثني عشر ، وهم ينتخبون عادة من المواطنين البلجيكيين الذين تجاوزوا الثلاثين ولم يبلغوا السبعين من اعمارهم ، ومقاعدهم تقابل قفص الاتهام وهم يجلسون مع المتهم وجهاً لوجه ويكون اكبرهم سناً بمثابة الرئيس لهم .

البناء الفخم الذي اقيم بمناسبة الذكرى المئوية لاستقلال بلجيكا





من مناظر القصر

ها هي الجدران تنبىء عن الحلة القاتمة الرائعة التي كانت تكتسيها، فقد كانت من الرخام الاسود المحشى بالكرانيت المصقول والرخام الاخضر المموج الثمين، وكان ارتفاعها عن الارض اربعة امتار، بينما كانت الاقسام التي تحيط بالهيئة الحاكمة مكسوة من غالي الخشب المحفور. اما السقف فقد كان متقن التزيين دقيق الصنع، مجزءاً الى ثمانية عشر جزءاً كأنها صناديق منتظمة فصلت بينها قدد عرضها سبعون سنتيمتراً .

ولريشة الفنان (دلفيل) فضل كبير في اعطاء القاعة ما كان لها من روعة ، فقد كانت الجدران تحمل رسوماً له يدل عليها الوصف وما لآثاره الفنية الباقية من شهرة ، فالرسم المتوسط كان يرمز الى فكرة « العدالة المثالية » يمثلها ملك مجنح يرتدي الحمرة، وبين اقدامه المجرم القاتل ، والى يمينه جثة الضحية عرضت ليقترن الاتهام بالدليل المادي ، والى اليسار ولد المجني يبكي اباه الى جانب ولد الجاني نفسه ، ومنظرهما يستدر الرحمة لكليهما .

وكانت اللوحات الاربع الجانبية تمثل تطور العدالة في العالم، فلوحته كانت ترمز الى « العصر الآلهي » وفيها يظهر النبي موسى يحمل الالواح وقد بان مكتوباً فيها « لا تقتل ابداً » وقد وطأ بقدميه سواعد رجلين يحاول كل منهما ان يقتل الآخر ، كما ظهر ملك قد استل حساماً يهدد به هذين الاخوين اللذين تجاوزا اوامر القانون المكتوب .

ولوحة كانت تمثل عدالة « العصور المظلمة » يوم كان الانتقام غاية العقاب والتعذيب الوحشي سبيله .

ولوحة كانت تمثل « العصر المسيحي » وفيها يظهر السيد المسيح يواسي رهطاً من المساجين المكبلين بالاصفاد، وهي ترمز الى تأثير مبدأ التسامح والعفو على فكرة العدالة .

واخيراً كانت هنالك لوحة ترمز الى « العدالة الحديثة » وقد مهد لها العلم ، فاصبحت معه ظروف المجرم تدرس قبل ان يحكم عليه ، كما اصبحت العوامل التي تكتنف جريمة ما اموراً تعنى بها العدالة قبل ان تصدر احكامها .

رواق المحامين

اذا ما تركنا قاعة محكمة الجنايات وجدنا الى اليسار سلماً فخماً من المرمر ، ان اخذناه قاصدين جناح محكمة الاستئناف ، فسنمر على رواق يضم غرفة نقيب المحامين وديوانه ، وسنشاهد فيه تماثيل نصفية لمشاهير المحامين ، ثم نجد انفسنا قد وقفنا نتطلع الى نصب فخم اقيم احياء لذكرى المحامين الذين استشهدوا في سبيل بلجيكا في الحرب العالمية الاولى ، مؤلف من تمثال للآلهة (مينرفا) تحمل في يمينها مجناً نقشت عليه اسماء الشهداء من رجال المحاماة الذين جعلوا من اجسامهم مجنا حياً في يد الوطن وقد اغار عليه العدو فخلدوا في تاريخه اسماءهم ، وخلد المثال (دافلوس) ذكراهم بهذا التمثال الرائع .

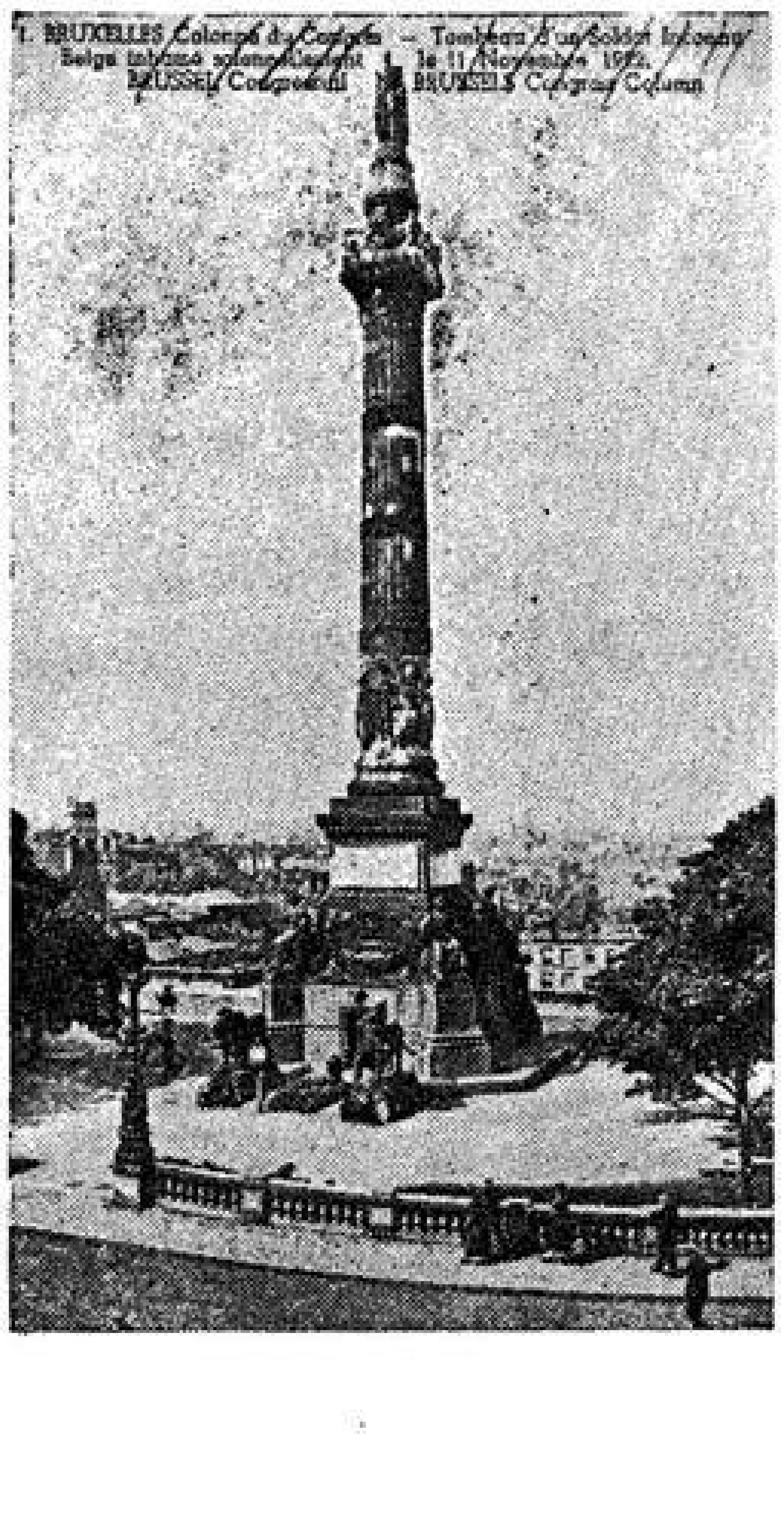
جناح محكمة الاستئناف

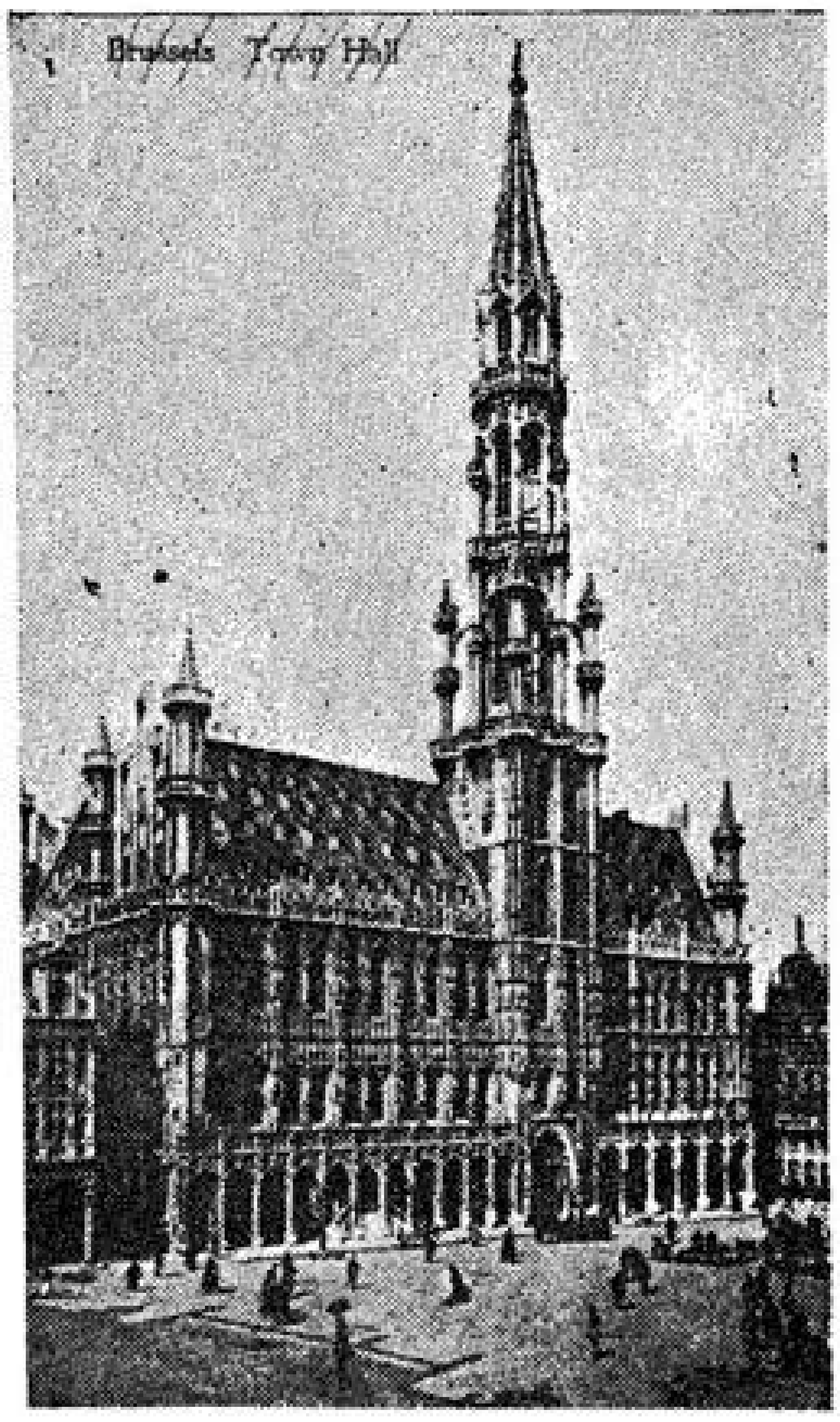
والآن لننحرف نحو اليمين ، ولنأخذ الممر الخاص بالرئيس الاول لمحكمة الاستئناف ، حيث نستمتع بالنظر الى روائع فنية من رسوم ونقوش والى جدران زينت باغلى انواع الرخام ، وقد عرضت امامها تماثيل نصفية لبعض العظماء امثال نابوليون القنصل وليوبولد الثاني الطفل وغيرهم من رجالات التاريخ البلجيكي .

ولنقف ، في منتصف الرواق، لحظة امام تمثال « العدالة » يعود تاريخه الى سنة ١٥٤٥ وهو للمثال « جاكوب دوبرك » والنسخة الاصلية منه محفوظة في محراب « كنيسة سانت وودرو » في مونس .

ولنجتز بعدئذ ناحية زينت باعلام مدينة بروكسل وبقية

عمود الكونغرس وفيه الجندي المجهول





القصر البلدي في بروكسل وهو من روائع فن البناء

المحافظات البلجيكية ؛ فنكون قد وصلنا الى القاعة الكبرى لمحكمة الاستئناف.

قاعة الاحتفالات

طول هذه القاعة ٢٨ متراً وعرضها ١٢ متراً وارتفاعها ١٨ متراً وجدرانها مزينة باجمل واروع انواع الرخام. في هذه القاعة الفخمة تعقد الجلسات العامة لدوائر محكمة الاستئناف، وفيها تجري الانتخابات القضائية، وحفلات التنصيب، وفيها يحلف القضاة والمحامون الجدد اليمين القانونية.

ومما يستلفت النظر ان اطاراً فخماً فوق الباب كان اعد ليحوي صورة الملك ليوبولد الثاني، ولكن الصورة لم توضع فوضع مكانها لوحة زيتية تمثل منظراً من حياة هنري الرابع.

منظر مدينة بروكسل

ويجدر بنا ونحن في جناح محكمة الاستئناف ان نطل من احدى النوافذ فيه لنتمتع بمنظر فريد لمدينة بروكسل يجمع الروعة الى الجمال، ويضم بدائع الفن التي اشتهرت بها عاصمة البلجيك، فها هي تحت انظارنا وبين ايدينا ساحة « بولرت » مهندس القصر حيث اقيم تمثال لجد المحاربين المشاة في الجيش البلجيكي، وها هي قريبة منا مدينة بروكسل القديمة بطرقها الضيقة وبيوتها المتراكبة وها هي ابراج كنيستي « مينيم » و« لا شابل »، والى ما وراء ذلك نرى ابراج كتدرائية « سانت كودول » وبرج « القصر البلدي » احد روائع الهندسة والفن. واذا ما تطلعنا الى ابعد من ذلك شاهدنا كنيسة « الساكره كور » وبناء « الذكرى المئوية » وكنيسة « ليكن » وتمثال « ليوبولد الاول » و« البرج الياباني ».

تمثالان

لنترك جناح محكمة الاستئناف قاصدين جناح محكمة التمييز في الطابق الاعلى، وسوف لا نمشي الا قليلاً حتى يشرف علينا تمثالان رائعان من المرمر صنعهما المثال « فليكس كاليه » وبلغت تكاليف التمثال الواحد ١٤٫٠٠٠ فرنك بلجيكي، الاول منهما لاشهر خطباء اليونان « ديموستين » اما الثاني فللمشرع العظيم «ليكورغ».

والى يسار السلم الذي سنصل اليه بعد مرورنا على ذينك التمثالين تقوم الاعمدة الجبارة التي تشكل الرواق الاعلى لقاعة القبة، ويستطيع قارئي تصور فخامة الرواق اذا عرف ان قطر العمود الحجري يبلغ ١٨٠ سم وارتفاعه يبلغ ١٦ متراً، بينما عمق ارض القاعة الخالدة اصبح يبلغ العشرين متراً من حيث نقف.

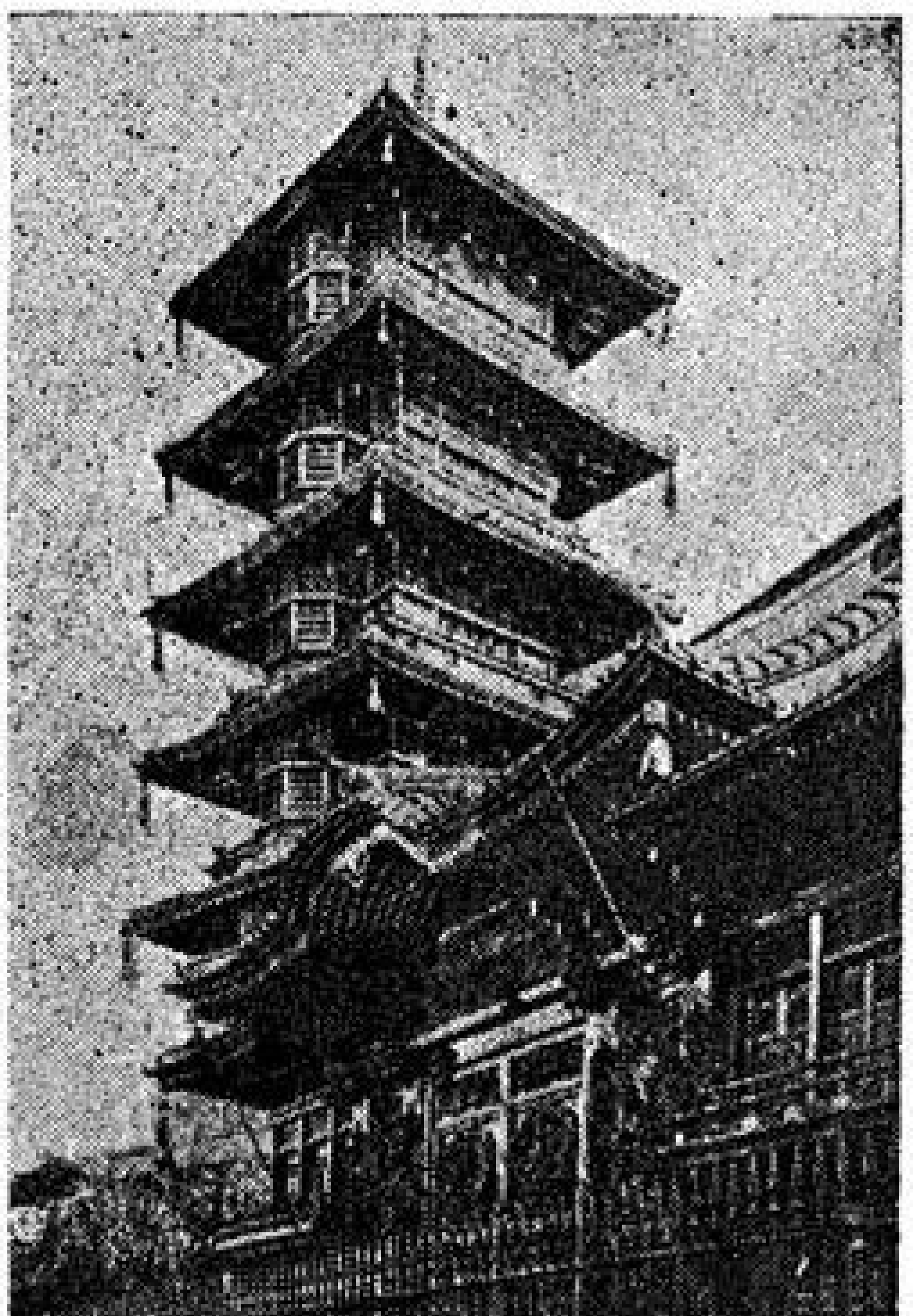
تمثال « العدالة »

نقف الآن في منتصف الرواق الداخلي الاعلى حيث اصبح ممر الباب الرئيسي للقصر تحت اقدامنا، لنشاهد تمثالا جديداً « للعدالة » كما تخيلها المثال الشهير « جوليوس ولنس » وهو يعتبر من آيات الفن الخالدة ولا عيب فيه الا انه من الجص، وقد كادت الاحداث تودي به لولا ان ادركته الحماية.

« انه شيخ وقور ارتسمت المهابة على وجهه، جبهته عالية، ونظراته عميقة تبدو انها اشد بعداً من الزمن، قد جلس على عرشه جلسة كلها اطمئنان، مسك بيمينه صولجان « القاضي » رمز القانون، وحمل بيسراه ميزان « العدالة » رمز الحق، وبين يديه قام طفل يبتسم راكناً الى عطفه وحبه ».

انه تمثال بسيط، انما هو الجلال بعينه، انه يوحي المهابة مهابة «الحق»، ويوحي الحب حب «موزعي الحق».

القصر الياباني من اشهر ما في بروكسل



قاعة محكمة التمييز

وصلنا الآن الى قاعة محكمة التمييز، بعد ان اجتزنا ممراً زينته تماثيل نصفية لكبار الراحلين من المحامين امام تلك المحكمة، انها قاعة مجلس قضاة اعلى محكمة في بلجيكا والكونغو البلجيكية وهي تضم دائرتين ولها رئيسان وفيها خمسة عشر مستشاراً يسمون

من قبل الملك بعد اطلاعه على قائمتين من المرشحين تعد الاولى منهما المحكمة نفسها ويعد الثانية مجلس الشيوخ .

ان محكمة التمييز البلجيكية محكمة اشراف على تطبيق القوانين لا تدخل في بحث اي نزاع الا في حالة محاكمة الوزراء ، ومهامها كغيرها من محاكم التمييز نقض الاحكام التي ترفع اليهـا وهي صادرة بالدرجة الاخيرة لخطأ في تطبيق القانون او لنقض من الاصول والا فابرامها .

ان هذه القاعة تبدو في حلة من الزينة رائعة فقد زينت جدرانها بانواع فاخرة من السجاد صنعت خصيصاً في المصنع الملكي للسجاد في « مالين » وقد وضع تصاميمهـا الرسام (جيت) وهي تحمل رسوم مشاهير كبار القضاة والمستشارين .

لنترك هذه القاعة ، فقد طال بنا الطواف وضاق الوقت وقد كان متسعاً ولنختم زيارتنا بقاعة الاحتفالات ، ولكن لنلاحظ اننا سنمر على تماثيل جميلة لمشاهير القضاة الفرنسيين والفلامان والبلجيك .

قاعة الاحتفالات لمحكمة التمييز

ان هذه القاعة وان كانت في سعة قاعة محكمة الاستئناف الا انها اكثر من تلك فخامة ، وامتن منها فرشاً واكثر رونقاً ، يتوج بابها اطار فخم مذهب قد غطي بالمخمل الاحمر لانه كان معداً لاحتواء لوحة تحمل رسم الملك ليوبولد الاول ، ولكنه ظل فارغاً ، وفي صدر القاعة حيث يجلس الرئيس الاعلى للقضاء البلجيكي ، اقيم تمثالان نصفيان رائعان للملك ليوبولد الثاني وللملكة هنريت ، والى اعلا توجد مقصورة فخمة الاثاث اعدت لجلوس الملك ورجال حاشيته ان احب يوماً ما زيارة المحكمة أو حضور احدى الحفلات .

جدران القاعة زينت بأثمن انواع المرمر الملون وتتجاوز المساحة التي زينت بالرخام ٢٠٠ متر مربع وقد بلغت تكاليفها ما يساوي ٤٠٠٠٠ فرنك بلجيكي ، والاخشاب التي فيها محفوره ومنقوشة ابدع نقش وهي من الابنوس الغالي الثمن .

في هذه القاعة تلتئم محكمة التمييز بكامل هيئتها يوم بدء الاعمال القضائية ، ويوم عرض القضايا المتنازع عليها يجلس الرئيس الاول والى يساره الرئيس الثاني في صدر القاعة ويحيط بها حول مائدة دثرت بالمخمل الاخضر المستشارون الخمسة عشر . والى اليمين يجلس النائب العام محاطاً بمعاونيه ، والى اليسار يجلس كبير المساعدين محاطاً بزملائه .

خاتمة المطاف

ها قد زرت معي ايها القارىء في دقائق معدودات قصر العدل في بروكسل الذي استغرقت زيارته من وقتي ساعـات طوالاً ، وزيارتك هذه وان كانت خاطفة غير شاملة ولكنهـا تعطيك فكرة واضحة عن ذلك القصر الرائع الذي يعتبر من مفاخر الفن المعاري الحديث ؛ واني لو اردت ان اصف لك كل ما قد تحب ان تعرفه عن القصر لاطلت عليك ، وقد ادخل عليك الملـل فيما لو ذكرت لك شيئاً عن المكتبات القيمة التي تضم الوف المجلدات وهي في خدمة القضاة والمحامين ، او فيما لو عددت لك كل تمثـال يحويه القصر فضلاً عن ذكر لمحة عن بعض اصحاب التماثيل .

والآن لننزل من جناح محكمة التمييز الى الطابق الارضي عن طريق سلم فخم اقيم داخل الرواق الامامي وخارج الباب البرونزي بين تلك الاعمدة الجبارة التي يراها الناظر من واجهة القصر ، فاذا ما وصلنا الارض وقفنا وقفة الوداع امام تمثالين جسيمين صنعهما المثال « فليكس بوره » الاول « لشيشرون » اعظم خطباء الرومان ، والثاني « لأولبين » احد كبار رجال القانون الروماني .

ان مهندسي وفناني القرن التاسع عشر بعد ان تعاونوا وبذلوا جهوداً جبارة استطاعوا ان يجمعوا الى فخامة البنـاء روعة الفن ، والى حضارة العصر ذكريات المجد الغابر ، والى الواقع القائم اماني المثالية السامية ، فكان من كل ما جمعوا « قصر العدل في بروكسل » .

كارثة القصر

عندما احتل الالمان بلجيكا في الحرب العالمية الاولى افتقدوا معدن البرونز فخلعوا الباب البرونزي في قصر العدل واستولوا على ما فيه من معدن ، واقتصرت الكارثة على هذا وزال اثرها سنة ١٩٣١ عندما اعيد الباب الى سابق عهده بعد ان انفق من اجله ٣٢٠٠٠٠ الفاً من الفرنكات البلجيكية .

وفي الحرب العالمية الثانية عف الالمان عن اخذ الباب ولكنهم ما تركوا بروكسل تحت ضغط الجيش الانكليزي يوم ٣ ايلول ١٩٤٤ الا بعد ان شاهد الناس النار بدأت تلتهم القصر العظيم ، فتضافرت الجهود على انقاذه واستطاعت التغلب على النار بعد ان كانت التهمت جناح محكمة الجنايات ، والقبة الجبارة فافتقدها الناس شامخة تناطح السحاب بسمو واعتزاز . ويأمل البلجيكيون ان تتمكن الحكومة من اعادة القصر الى سابق عهده حتى نهاية عام ١٩٥٠ وكانت بدأت باصلاحه منذ سنة ١٩٤٦ وتقدر النفقات اللازمة للاصلاح بمبلغ ٣٠٠ مليون فرنك بلجيكي اي بما يقرب من ١٥ مليوناً من الليرات السورية اللبنانية ، فتأمل . . !

دمشق

عدنان الخطيب

قنبلة الفناء

لايليا ابو ماضي

نيويورك

اذا سحقت ارضنا القنبله كما يسحق الحجر الخردله
وقوّض مفعولها الراسيات فصارت غباراً له جلجله
ودب الفنا في ذوات الجناح وغلغل في النبت فاستأصله
وفي الماشيات وفي الزاحفات عليها الى آخر السلسله
فلا زهر يأرج في روضةٍ ولا ديك يصدح في مزبله
وضاع الزمان ومقياسه وأشبه آخره اوله
ولم يبق حي على سطحها واصبح عزريل لا شغل لهْ
فذلك خطبٌ يهول النفوس تصوره قبل ان تحمله
ولكن امراً يعزي الجميع اذا سحقت ارضنا القنبله
فلن يدع الموت حياً يلوم سواه على هذه المقتله !

الزورق التائه

الى الاستاذ نسيم نصر

لانور الجندي

السلمية – سوريا

يا زورقاً تاه ولم يرجعِ، قل لي، أبعد الموت من مطمعِ.. ؟
ماذا وراء الغيب.. ؟ هل عالمٌ كعالمي المغمور بالادمع.. ؟
نتيه في الدنيا ولا غاية.. ونحن من اوهامنا لا نعي...
يا موت، اين الحلم، اين المنى.. ؟ احيا بها حيناً، وتحيا معي.. ؟
أأنفض الكفّين.. ؟ كم مأمل.. شربته وهماً، ولم ينفع..
فرحت من شوقي، أذيب الدجى... شوقاً، ونار اليأس في اضلعي
ظمئت يا موت، فهل رشفةٌ أفنى بها من ذلك المنبع.. ؟
يا موت، حسبي من جنون الاسى اني غريبٌ تاه في بلقع..

الحب والابعاد

قصة صديقي المهندس «ع.» ذي الذهنية العجيبة والخيال الخصب، اكتبها كما قصها عليَّ في ذات مساء

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

كان لدى حلاق البلدة الصغيرة التي نشأت فيها صورة لفتاة جميلة تلبس ثوباً سماوي الزرقة وتحمل في كفها المرتمية في حجرها وردة كبيرة، مطرقة برأسها ناظرة بعينها نظرة عجيبة. فكنت، وأنا صبي، اتأمل في تلك الصورة فخيل الي ان الفتاة ليست في اطار على الجدار بل هي كعاب نابضة بالحياة جالسة على شاطىء البركة التي هي مصورة قربها، وان تلك النظرة العجيبة في عينيها موجهة الي، الي دون سائر الناس. وكنت اذا جلست في كرسي الحلاق ارى الصورة منعكسة في المرآة فاراها تبتسم لي، فيستبد بي القلق: هل تلك ابتسامة ام هي تموجات المرآة السيئة الصقل تحرك ثغر الفتاة بالابتسامة الساحرة؟! وشببت فابتعدت عن بلدتي الصغيرة، ولكني كنت كلما عدت اليها ارى الصورة في مكانها من دكان الحلاق قد اصفر ورقها وظل ثغرها قرمزياً. فاذا تطلعت غص صدري بقلبي والتهب وجهي وانا ابصرها تنظر الي، ذلك لاني كنت اشعر شعوراً اكيداً بان تلك الصورة كانت تملك من الحياة، نوعاً غامضاً من الحياة، ما يجعل لنظرتها معنى ولابتسامتها الموشومة بالاصباغ روحاً وحيوية.

هل كان شعوري ذاك مقتصراً على تلك الصورة؟ لا اصدق اذا قلت لك نعم. الحق اني كنت امام كل صورة، ومنذ صغري اشعر باني امام كائن حي. كنت ارد ذلك في البدء الى موهبة المصورين ثم الى خصوبة خيالي وفرط احساسي، حتى هداني ما تعلمته الى مبعث هذه الملكة التي كانت تريني في الصور التي يحسبها الآخرون جامدة كائنات نابضة بالحياة، فتبين لي ان ما كنت اقول لنفسي عنه انه وهم هو حقيقة، او اذا اردت الدقة في التعبير، هو وجه من الحقيقة كانت تتراءى لي من دون غيري لاني كنت لامر ما مهيئاً الى ان اراها من هذا الوجه بينما كان الآخرون: اصحابي، وانت منهم، وجيراني وابناء بلدي مهيئين الى ان يروها من وجه آخر.

ان عيني اليمنى هذه يا صاحبي من زجاج. انت والآخرون كلكم ذو عينين وانا اعور، ذو عين واحدة. وان بينكم وبيني في ادراك المرئيات اختلاف يجعلني اعيش في عالم غير الذي تعيشون انتم فيه، فبينما تعيشون انتم في عالم ذي ثلاثة ابعاد لا اعرف انا الا عالماً ذا بعدين. لا تهز برأسك هكذا مستخفاً بي، فهذا ما يقوله لي ولك العلم. انك لا تدرك ان لمرئياتك طولا وعرضاً وثخناً الا لكونك تملك عينين اثنتين. فكل من عينيك ترسم للمرئي صورة في الدماغ ذات طول وعرض، ولما كانت الصورتان غير متطابقتين لان بين العينين بعداً هو بقدر عين ثالثة فان الدماغ يدرك من هذا التفاوت في الصورتين واختلاف ابعادهما ان لما امامه بعداً ثالثاً هو الثخن. اما انا يا صاحبي فان عيني اليسرى لا تنقل لدماغي، منذ عرفت نفسي، الا صورة يتيمة ليس لها من الابعاد غير الطول والعرض، كشكل صورة في اي كتاب.

قصة

اني لا ادرك، الا وهماً، ذلك البعد الثالث الذي تتحدثون عنه انتم معشر ذوي العينين، فكل ما في الوجود عندي صورة مسطحة لا نتوء فيها ولا بروز.

فارثر لي يا صاحبي لاني اعيش في عالمي، ذي البعدين، الضيق بينما تعيشون انتم في عالم طويل عريض عميق ، ذي ثلاثة ابعاد .

هل تضحك بما اقوله ام تعجب منه ؟ ليت لي ان ادخلك في عالمي كي ترى المرئيات والوجود بعيني . اذن لوجدت انه من البساطة بمكان ان تحيا الصورة فتنظر اليك وتبتسم . ذلك لانك في عالمك المثلث الابعاد تجد من المستحيل ان تدب الحياة في صورة على ورق لان كل حي ، في نظرك ، يجب ان يكون ذا ثلاثة ابعاد قبل ان تدب فيه الحياة . اما في عالمي فليس للحياة هذا الشرط . فانا الآن اراك كالصورة التي علقها حلاق بلدتي على جدار دكانه ، كلا كما خيال مسطح لا يملك الا الطول والعرض. ليس بينك وبينها ذلك العائق المستحيل اجتيازه ، ذلك البعد الثالث الذي تراه انت لا اراه انا يا صاحبي . هذا الذي اهتديت به الى سر الحياة التي كنت اراها تدب في الصور التي يظنها ابناء العالم ذي الثلاثة ابعاد ميتة جامدة . وبغير هذا ما كان لي ان افهم كثيراً من اسرار حياتي ، ولا ان افهم قصة تلك الهندية ، حاملة الحزمة .

***

هندية ؟ انت لا تعرفها ؟ اذن سأقص امرها عليك . دخلت ذات مرة الى مكتبي . فوجدت ان « محمد » وهو الغلام الذي يعمل فيه ، قد علق على الجدار المواجه لمقعدي صورة غريبة لا بد انه انتزعها من احدى المجلات . وكان محمد مولعاً بهذا الضرب من الصور ، قد ملأ جدران غرفته في المكتب بصور شتى لحسان الصفحة الاخيرة من المجلات . وكان يحاول بين الحين والحين ان يتسلل بصورة منها الى غرفتي فكنت احول بينه وبين هذا . اما في هذه المرة فقد كانت الحسناء التي علقها امامي تختلف عن زمرة حسانه الاخرى ، وكان فيهـا ، او في الصورة المنقولة عن صورتها الزيتية ، من الجد والغرابة ما رأيت فيه مبرراً لابقائها في موضعها الذي اختاره لها محمد من جدار مكتبي ، بين صورتين احداهما تمثل واجهة بناء ضخم على الطراز الفني وتمثل الاخرى مخططاً لآلة رافعة حديثة .

وكانت الصورة التي علقها محمد امامي تمثل فتاة هندية سمراء عارية الوسط تحمل على رأسها حزمة من السنابل ، قد دثرت اعلاها بصدار داكن ضم نهديها واعلى ذراعيها ، وشدت على حقويها العريضين مئزراً تجسدت تحت خيوطه معـالم بدنها القوي نابضة بالحياة والاتساق . اما ذراعاها فكانتا ممتدتين الى امام ووراء ، احداهما تضم الحزمة بمنجل تحمله كفها والاخرى تسندها من وراء بانثناءة بسيطة رشيقة على بساطتها ، وكأن تينك الذراعين في موضعها من جانب الرأس الاسمر الجميل كانتا ترسمان حركة من حركات الرقص الهندي المقدس في احد معابد براهما ، ولم تكونا تؤديان عملاً قروياً لفلاحة في احد حقول الهند ، وهو حقل امتد في الصورة وراء حاملة الحزمة بنظر عجيب والوان ساطعة بشمس الهند ، محترقة بنار الهند ، يكاد يفوق بروعته روعة ذلك المنظر الخلفي . الذي ابتدعته مخيلة ليوناردو دافنشي لصورة الجيوكندا .

وانا شخصياً لا احب السمروات من النساء ولا اعشق الهنود بين الشعوب ولكن هذه السمراء الهندية ربطت ناظري بها امداً طويلاً . فكنت ، ولا سيا في الليالي التي اخلو فيها الى نفسي في مكتبي اعمل او اقرأ ، ارفع عيني بين الفينة والفينة الى الجدار لاتأمل حاملة الحزمة . وكان يخيل الي احياناً انها من الحياة بحيث تكاد ان تتحرك في اطارها وتسير الى البيت الفنلندي المواجه لها . لقد كانت نظرتها اليه ، وصورتها جانبية ، ثابتة حتى كأن اقصى مناها ، منى هذه الفلاحة الهندية المحترقة بنار الشمس العمودية الاشعة ، ان تدخل هذا الكن الذي تكاد حجارته تتحدث باحاديث ثلوج فنلندا وجليد بحر البلطيك . وكانت تلك النظرة من الحرارة في درجة كنت اتساءل معها في لوعة متى تتحول الي اتحس بوجودي انا الذي اتطلع اليها ليل نهار وارقب ، نافذ الصبر ، ارتسام ظلال اهدابها على وجنتها واتلاع جيدها في تطلعها . واذا كنت يا صاحبي قد ابتسمت يسيراً لما قصصته عليك من امري مع صورة الحلاق ، فاني احسبك لا تكتفي بالابتسام . حين اقص عليك ما قد تسميه حماقات من آرائي وافعالي في خلواتي وانا انظر الى حاملة الحزمة . ولكني اعذرك ، وقد كنت مثلك قبل ان عرفت ان آرائي وافعالي تلك كانت بعض موجبات حياتي في عالم ذي بعدين لا تستطيع انت ان ترد من خيالك على المقام فيه . وقد كان ذلك العالم المزدوج الابعاد نظرية في ذهني ككل نظرية في كتاب ، ثم اتت حاملة الحزمة فكانت ، في بقية القصة التي اقصها عليك الآن هي البرهان على ان هذه النظرية صحيحة في الواقع مثل مـا هي صحيحة في المنطق والتفكير .

لقد لازمت حاملة الحزمة شهوراً ، انا على مقعدي في مكتبي وهي في اطارها على الجدار ، اتأمل سمرتها وامتشاق قدها والانثناءات المعبرة لذراعيها في حملها حزمة السنابل . ثم اغلقت في ذات يوم مكتبي على ما فيه من اثاث وادوات وكتب وصور ، وعلى حاملة الحزمة ، وغادرت كل هذه البلاد حتى عدت اليها بعد عامين ، عامين كاملين .

عبن

عدت الى وطني بعد عامين كاملين لم اعد الى مكتبي ولا الى المدينة التي فيها المكتب، ولكني عدت الى البلدة الصغيرة التي عشت فيها، الى مزارع تلك البلدة اذا اردت الدقة في الرواية ذلك ان ابن عمي عمر عرف حاجتي الى الاستجمام فدعاني الى ان اقضي ايامي الاولى بعد عودتي في مزرعته وكان فخوراً بتلك المزرعة وبزراعة الارز التي ادخلها اليها. فاستجبت الى دعوته وقضيت الاسبوع الاول ناعماً بالجو الهادىء عنده، وباقاصيصه عن مغامراته مع صواحبه من فلاحات القرى المجاورة، وهي اقاصيص كنت الومه على المبالغة فيها وكثرة الحشو في سرده لها. اما حين كان ينصرف الى عمله فقد كنت اقضي الوقت في التجول بين حقول الارز او في مطالعة بعض ما اصطحبته معي من كتب.

وفي ذات صباح اقبل علي عمر لائماً لي على كسلي وداعياً اياي الى ان ادفع ثمن الخبز الذي املأ به بطني كل يوم بالاشراف معه على حصاد الارز الذي تقوم به حصادات ميكانيكية وفلاحون تداعوا اليه من القرى المجاورة. ولم يكن بوسعي الا ان انزل على رغبته، فرافقته ظهر ذلك اليوم الى خيامه التي اقيمت على رابية عالية تنبسط تحتها حقول الارز ويتوزع فيها النهر الى جداول متلوية في بطء، ومتسربة الى بطائح راكدة ينبت حولها الزل والبلان. وحينما انصرف عمر الى فلاحيه وحصاداته انطلقت وحدي ضارباً بين الحقول، بعيداً عن الضجة والجلبة، الى ان بلغت بطيحة واسعة من الماء في منخفض من الارض محجوبة عن عيون من كانوا في الحقل بمرتفع من الارض وسياج من قصب البردي الطويل.

والى جانب هذه البطيحة الهادئة اضطجعت اتأمل مياهها الراكدة التي انعكست فيها زرقة السماء فبدت في ظلال النبات القائم حولها خضراء زمردية. ولم تكن من نسمة تجول في جو الحقل ذلك الاصيل فكان سطحها يبدو بالظلال المرتمية عليه والساكنة دون اية نأمة كأنه صورة لمنظر طبيعي في اطار، وانصرفت الى تأمل تلك الصورة الجميلة بنظرة ساكنة مديدة. ولست اذكر كم لبثت كذلك ولا ماذا كان يدور في رأسي من فكر حين خيل لي فجأة باني لطول ما حدقت في منظر واحد قد اصابني توهم، كأنه التوهم الذي يعتري قارئي المندل من طول تحديقه في قطرة الحبر اللامعة في قعر فنجان. ذلك اني رأيت فجأة على سطح البطيحة الراكد المصقول صورة قد ارتسمت. كانت صورة مألوفة بل عزيزة الي، انطلق فكري يجوب انحاء ذكرياتي في سرعة البرق مفتشاً عنها، حتى ادركت بعد برهة لا ادري حسابها من الزمن ان ما ارتسم امامي ليس الا الصورة التي خلفتها في مكتبي في المدينة البعيدة منذ عامين.. صورة حاملة الحزمة!

وحقاً كانت حاملة الحزمة امامي على صفحة الماء الراكد كما كانت منذ تركتها في اطار على جدار غرفتي: محياها الاسمر، ونظرتها الجانبية الفائضة حرارة، وصدرها الناهد، وذراعاها المنثنيتان المعبرتان عن حركة رقص مقدسة للاله سيفا، واللتان كانتا تضمان حزمة من السنابل. الآن ادركت ان السنابل التي تحملها تلك الحسناء الهندية هي سنابل ارز، فالارز الذي ينبت في الهند قد نبت اليوم في مزرعة عمر! وكنت اريد الالتفات الى وراء لاتثبت هل هذا طيف استحضره وهمي من حاملة الحزمة التي خلفتها في مكتبي ام هي خيال لشبح قائم ورائي، ولكني كنت اخاف من ان اية حركة تعكر صفو ذلك السكون الرائع، اياً كان مصدرها، ستمحو الصورة المطبوعة بألوان الاصيل على صفحة الماء، وهي صورة سواء كانت وهماً ام حقيقة، عبقرية بديعة.

واخيراً خرجت من سكون المسحور بالتفاتة مفاجئة الى وراء كأني كنت اريد بها ان افاجىء الطيف قبل هروبه. ولاح لي ان امامي وعلى بعد خطوات مني طيف هو طيف الهندية السمراء بلحمها ودمها واقفاً غير ملتفت الي يتطلع وحزمته على رأسه الى بعيد، حيث كان عمر والفلاحون والحصادات. ما اعجبها من حادثة! اكان المصور الذي رسم بالزيت صورة حاملة الحزمة قد اتخذ من هذه الفتاة القروية نموذجاً له؟! اكم من عجيبة مثل هذه في العالم كله؟ وتحركت واقفاً من مضطجعي فانتبهت القروية التي لم تكن تشعر بوجودي قبل هذه الحركة. وبدا لي ان وجهها قد احمر فاكتسبت سمرتها المليحة بذلك الاحمرار لوناً ما كان الذه في البصر والفؤاد في ذلك الاصيل. واطرقت الفتاة بعنف اطراقة كانت تخالسني خلالها النظر في استحياء، وهو ما لم تكن تفعله معي حاملة الحزمة حين كانت معلقة على جدار مكتبي! وبدا لي ان هذه تختلف عن حاملة الحزمة في امر آخر، فهي ليست عارية الوسط كتلك وان كان ذراعاها في سمرتها وامتلائها واستدارتها وفي حركتها المعبرة كذراعي حسناء الصورة.

وهمت الفتاة بان تخطو مبتعدة فاستوقفتها باشارة من يدي وقلت. — من اين انت يا فتاة؟

فلم تشأ ان تتكلم ولكنها اشارت بيدها اشارة بعيدة الى مطلع الشمس فاحسست برعشة تتناول وجداني وقلت في نفسي: من

الشرق .. كذلك كانت حاملة الحزمة !

– ألك زمن طويل في هذه القرية .

فأجابت بصوت منغوم حيي : – سنتان . – وما اسمك ؟

فترددت قليلاً قبل ان تجيب على سؤالي ثم قالت :

– اسمي ؟... اسمي هندية ..

– ماذا تقولين ؟ ! فاجابت ببساطة محيرة : – هندية ... !

***

وأبت الى خيام عمر على الرابية العالية . وهناك عرفت ان هندية وعجوزين من القرويات معهـا يقمن في تلك الخيام حيث يعملن في سد حاجات الرجـال الذين يشرفون على الحصادات وتهيئة مطعمهم . وكانت خطـة عمر تقضي بالزامي بالمبيت معه في هذه الخيام مضايقة لي ومداعبة ، فوجدت في المقام بالقرب من هندية بعض الخفراء . والحق اني لبثت طول يومي الاول افكر في هذه الصدفة الغريبة التي جعلت من الهندية حاملة الحزمة وهندية القروية صورتين متماثلتين . ولما حاولت ان اجر عمـر الى الكلام عن هندية تطلع الي بنظرة خبيثة وقال . – هل اعجبتك ؟

فلم املك الا السكون دفعاً لشبهاته وسوء ظنه .

على اني في الايام التالية لم اعد احس لشبهات عمر وسوء ظنه حساباً ، بل اصبحت ارى نظرته الخبيثة في عينيه وبسمته الماكرة على شفتيه فأغضي عنهما متجاهلاً وانا الذي كنت لا اصبر على بادرة منه الا واكيل له السخرية والتندر كيلاً ، ذلك ان هندية كانت قد اعجبتني حقاً لم تكن فتاة سمراء دعجـاء العينين مكتنزة الشفتين لفاء القوام فحسب ، بل كان فيها من صفاء الروح وحلاوة النفس ما كنت احس معه ان روحي تشتاق اليها اشتياق الظامىء الى الماء الزلال . وكنت ظامئاً لا يروى ، فقضيت الايام العديدة في خيمة عمر كتابي في يدي مفتوح على صفحة لا تتغير وانا اتبع قد هندية في غدوها بين الخيام ورواحها ، وفي انكبابها على عملها او تفرغها منه . اما هي فكانت في البدء تخالس النظر هـذا الفتى المدني الذي قالوا لها عنه انه ذو ثروة ومكانة واسفار طوال ، ثم تجرأت فقابلت نظراتي بمثلها من عينيهـا الساحرتين ، نظرات صافية أليفة ترق احياناً حتى لتكاد تتأوه ، وتبسم احيـاناً حتى لتكاد تغرد ، وتعبر احياناً حتى لتكاد تنطق .

ومضت آلات عمر الميكانيكية تدور جاهدة في حصاد الارز حاصدة معه ساعاتي الممتعة بالقرب من هندية . وكان لي في ذلك القرب سعادة لا تنغصها الا عين ورهاء لاحدى العجوزين كانت لا تفتأ تلاحقنا بنظراتها الشريرة . وكنت احياناً اضع يدي على يد هندية حين تدخل لبعض امرها خيمتي فأشعر انهـا تلبث لثوان مطمئنة كأنها مسافر بلغ غايته ثم تنفتل فجأة مرتعشة قلقة نافرة كغزال حال القانص بينه وبين المورد . وعبثاً كنت احاول حملها على ان تطيل مكثها في خيمتي او ان تسهب في كلامها حينما احدثها فترد علي . وفي ذات يوم ، بدت فيه حقول الارز جرداء عارية الا من كدوس من السنابل مكومة في نقاط متباعدة ، شعرت بان في عيني هندية حديثاً طويلاً لا تكاد نظراتها الناطقة تفي به فصيحاً . كانت تروح وتجيء وتكاد عيناها ، عيناها الدعجاوان ، تقولان لي : ان لنا معك حديثاً ، الا تفهم ما نقول ؟ فامسكت بيدها وقلت لها – هندية ، ماذا هنالك ؟

فتراجعت الى آخر الخيمة وقالت :

– لا شيء يا افندي . بقيت بقية من الارز لم تبلغها الآلات عند بطيحة الزل ، انا ذاهبة لحصادها قبل الغروب .

وكان ذلك موعداً ..

وعند بطيحة الزل التي رأيت فيها هندية حاملة الحزمة لاول مرة وجدتها هذا المساء . واتت الي كتلك المرة حاملة حزمة من سنابل الارز ثبتتها على راسها بمنجل في يدها فانحسر ردن الثوب عن ذراعها العبلة الخمرية السمراء المستقيمة الاستدارة مما ذكرني مرة اخرى بهذه الاعجوبة ، هذا الشبه بين الهندية حاملة الحزمة وهندية حاملة الحزمة ، كأنما تلك الصورة قد تركت اطارها وجاءت الي تسعى الى شاطىء البطيحة ، وخيل الي اني لو تفقدت مكتبي في هذه الساعة لرأيت الاطار اجوف خاوياً على جـدار الغرفة كأنه سرير فارغ هجرته لتوها عذراء فاتنة . وجلست في مطمئن من الارض اصغي الى حديث هندية منتقاً لتلك الساعات الطويلة من الصمت ، صمتها في الخيـام المزيج من البساطة والدل والخوف . وكانت عباراتها القصيرة ملأى بالحرارة تكاد تكون احياء لا الفاظاً ، حتى نظراتها كانت تفيض نشاطاً وحيوية . وضممتها الي فضمتني هي باحدى ذراعيها ضاغطة بيمناها منكبي ولكنها ظلت تقيم من كفها الاخرى حاجزاً بين شفتي وثغرها . قلت لها ، وانا اعني صورتها المعلقة في مكتبي بعيداً :

– لقد عرفتك يا هندية قبل الآن .

فقالت دون تردد وبلهجتها الحلوة :– وانا كذلك .. قلبي يعرفك . قلت لها . – ولكنك لم تنظري الي . عيناك هاتان الساحرتان كانتا تنظران دوماً الى غيري . قالت :

— عين المرأة ليست في وجهها ، بل في قلبها . .

فأردت ان الثم الشفتين اللتين مرت هذه الالفاظ عليها ولكنها لم تمكني . قلت :

— هل تأتين الى البلد يا هندية ؟ ليست هذه البلدة بل المدينة الكبيرة حيث اقيم . .

فاستقامت من نصف الضجعة التي كانت فيها وقالت :

— المدينة ؟ لا المدينة ولا الديار هذه كلها . لو اني اعرف اني اراك بعد الآن ما جلست معك هكذا .

قلت متسائلاً : — واين تريدين يا هندية ؟

فسكتت برهة ثم قالت : — غداً او بعد غد ، يزفني ابن عمي . .

— ابن عمك ؟ اين يقيم ؟

فأشارت بيدها تلك الاشارة البعيدة الى الشرق ، فسكت اسيفاً وبعد برهة صمت طويلة قلت لها . — هندية . . هل تحبينني ؟

فنظرت الي بعينها نظرة فسرها غروري بان نعم ! فقلت لها وانا بين المازح والجاد .

— اذن سنلتقي يا هندية ، ولن يستطيع ابن عمك ان يأخذك . سنلتقي في المدينة الكبيرة كما قلت لك .

قالت بلهجة حزينة ولكنها حاسمة .

— نحن ذاهبون بعيداً عنك ، بعيداً جداً . لن نلتقي بعد الآن .

وتطلعت الى الشرق بنظرة جانبية ذكرت لها تلك الصورة فوددت ان اسألها اين ، « بعيـداً » هذه ، اين يقع الشرق الذي ستذهب اليه ، اهو في الهند ؟ وصور لي وهمي ان عينيها كانتا تفهمان ما يدور بخلدي وان نظراتها العميقة الحزينة تجيبني : نعم . . نعم . .

وفي ضوء آخر اشعة الشمس الغاربة تفلتت هندية من بين ذراعي ثم رفعت حزمتها الى رأسها وخطت بقدها اللدن الرشيق مبتعدة عني الى حيث الخيام ، تاركة اياي للحسرة والظلام .

***

وانجاب الظلام في صباح اليوم التالي ولكن الحسرة ظلت ترين عليّ . ذلك ان هندية ذهبت الى الشرق ، والشرق أبعاد وآماد . وكنت في حيرة أأضحك من نفسي على تعلقها بهذه الفتاة القروية التي خالطتها أياماً قلائل ام اشفق عليها من هذه العاطفة الغريبة التي غمرتها . وكانت ذكرى مجلسي الاخير اليها في انوار الغروب بجانب بطيحة الزل مزيجاً لي من الالم واللذة ، والحسرة والهناءة . وكنت من ادمان التفكير والتذكر أكاد اخلط بين الواقع والخيال وبين ما حدث حقاً ، وما كنت ارغب ان يحدث ، وما كنت اخاف حدوثه . وكان يخيل الي في الحالات التي كنت اتذكر بها شخص هندية الممشوق وحركتها الهادئة وصمتها اني لم اعش تلك الايام الى قرب كائن حي بل الى قرب الهندية السمراء حاملة الحزمة التي لم تكن غير آية فنية رسمتها ريشة فنان عبقري . أما في اللحظات التي اتذكر فيها حرارة ذراع هندية وهي تضمني ، وحر انفاسها وهي تميل علي فقد كنت اعتقد ان راقصة هندية من راقصات المعابد كانت تضمني اليها في احدى لحظات عبادتها التي اقدس طقوسها ان تهب جسدها من حب آلهتها . وظلت هذه الافكار تروح وتجيء في رأسي وقلبي حتى لقد وقر في خلدي اني حين اعود من مزرعة عمر الى مكتبي في المدينة الكبيرة لن أرى صورة حاملة الحزمة في الاطار بل سأجد هندية ، لحماً ودماً ، على الكرسي المريح المواجه لمكتبي . الا اني حين ذكرت ما قالته لي هندية من أنها ومن هي منهم ذاهبون بعيداً احسست بأن كفاً قاسية تعصر قلبي ، ففضلت معها ان اعود الى الواقع الذي لا لبس فيه ولا ابهام . قلت لنفسي : لا ، ليس بين الهندية وهندية الا صلة الشبه ، وليس لتخيلاتي ظل من الحقيقة . فلو صحت تلك التخيلات لفقدت حتى العزاء الذي ظل لي ، اذن لما وجدت من احد على الكرسي المريح امامي بل لوجدت مكتبي خاوياً من الروح المالئة جوه سحراً وحرارة ولوجدت الاطار على الجدار أجوف فارغاً كطلل متهدم هجرة سكانه . . .

. . . ثم ماذا اقص عليك يا صاحبي ؟ . . . أنت يا ابن العالم ذي الابعاد الثلاثة ؟ هل تستطيع ان تفهم كيف تكون الصور احياء والاحياء صوراً في عالمي ذي البعدين ؟ . . . لقد عدت الى مكتبي اترقب ان ارى الهندية في فتنتها الفنية التي طال عنها غيابي . وفتحت المكتب في خشوع الفقير الهندي في معبد بنارس ، اطأ الارض بروؤس اصابعي : فؤادي مملوء بتهاويل الحب ورأسي دائر من البخور الذي احترقت به ساعات هنائي . وتطلعت الى الحائط امام مكتبي فوجدت الاطار الذي ضم فاتنتي السمراء . وجدته ولكنه كان خالياً . . . فلقد اختفت الصورة ، صورة حاملة الحزمة . . .

أين ذهبت حاملة الحزمة الهندية السمراء ؟ كيف هجرت اطارها ومتى هجرته ؟ اتراها غادرت مكتبي منذ عامين ، منذ هبطت هندية مزرعة عمر ؟ ثم اين ذهبت ؟ ! . اسئلة لم اجد لها حلاً ولم يسترح وجداني الا حين قلت لقلبي في استسلام اليائس :

— انها هي . . . الهندية هندية . . . لقد ذهبت بعيداً . . . الى الشرق . . .

الرقة ـ سوريا — عبد السلام العجيلي

انا كافر

ودّ — يا صاحبي — لو مُسخ صخرة يتحطم على صلعتها يافوخ الكبرياء.. كبرياء اولئك الذين يتعالون عن طينة الناس ويفرضهم جبروتهم الطاغي انصاف آلهة على الارض.. انصاف آلهة ريحهم رجس، ولكن قسوة الحياة خلقت لهم عباداً، علمتهم الحاجة كيف يتزلفون، فركب الذل نفوسهم فكانوا بئس المطايا!

ذلك — يا صاحبي — خير له الف مرة من ان يرى «الصنم» يتأله فلا يملك على الاقل ان يستنزل على اضلاعه لعنات المطرقة الحانقة الناقمة.

تتجسد مجموعة الحقارات ساطة، فيأبى الملق إلا ان يعمدها مجموعة من العبقريات، ليس الخلود الا بعض هباتها، وليس المجد الا بعض صنائعها. ويتجمع مكر الثعالب في رأس فائل، فيأبى الملق الا ان يقمصه بطولاتِ منقذٍ، وامجادَ نبي!

الملق.. هذا الساحر القاهر، ينفخ في المفاهيم فيذروها رماداً، ويعبث بالقيم فيحيلها اصفاداً!

.. وتسألني عن الوعي؟ قاهر الملق، فاسأل عنه — بالله عليك — شبابنا، فان تحدوا بصمتهم «ابا الهول»، فاعلم رعاك الله ان علم ذلك عند ربي.

اغفر لصاحبك يأسه، فلقد آمن بالانسان حتى كاد ايمانه ينقلب الى عبادة ولكن الواقع السمج حطم ايمانه، فكفر بالناس بهذه المضغ الرخوة تدب على التراب مترهلة حتى لتكاد تنماع كأن الله يوم جبل طينتها، تناساها وما شواها، بل القاها الى الارض تراباً حقيراً ليس فيه سمو التراب ولا طهارة الصلصال.

غريب «صاحبك» في دنيا الناس، كلما تطاول عليه الامد ازداد شعوره بالغربة غربة الروح لا تهفو اليها روح، وغربة الوجدان لا يشاركه انفعالاته وجدان... ولو رأيته والوحدة الباردة الخرساء تغمر كيانه لحسبته ورقة استطاع الخريف ان يلوّنها بلون الفناء. ولكنما اعياه ان يسلسل في اعصابها معناه، فعيناه لا تنفكان تسردان عليك مأساة مبهمة الحوادث، في ملامحه بعض معانيها، وقلبه لا ينفك ينبض بآلام الناس، وتفور فيه عناصر كراهيتهم... اجل — يا صاحبي — انه يكره الناس ويشاركهم آلامهم في آن واحد، لان الكره الانساني ليس الا حباً يبلغ درجة العنف، او حباً يبلغ حد الاسراف.

انه يرحم في الضعفاء ضعفهم، ولكنه لا يغتفر لهم هذا الضعف. فمن الجبن ان يظلوا مآسي حية يخلقها القوي حين تلهو انانيته وتعبث اطماعه، ومن الجبن ان يظلوا عبيداً لشهواته، وأكراً يركلها كلما اشتهت كبرياؤه السلوى.

انه يكره فيهم ان يفقدوا كبرياء المقاومة، وان يُمسخوا استكانة بلهاء معتوهة تخلق الجرأة في نفوس عشاق المجد وهواة العظمة وتشجعهم على استخدامهم سلالم للوصولية، ومصاعد لابراج التسلط والسيطرة!!

ليتهم يعلمون — يا صاحبي — ان عنفوان النسر، يأبى عليه ان يُمرّغ ريش قوادمه بتراب السفح، وان اثقلت جناحيه جراحات هدّت كيانه وما هدّت كفاحه!

هو يريدهم ان يتحسسوا الحيف الاجتماعي، ان تكون كل رعشة من رعشات كيانهم تعبيراً عن عمق هذا الحس، ان تكون كل حركة من حركات وجدانهم نذيراً للقوة بالانتقاض عليها.. ان يكونوا بمجموعهم طاقة واعية مريدة، تعرف كيف ومتى تستخدم فاعليتها لاقرار عدالة اجتماعية تسقط القوي من مقام تألهه ليصبح انساناً يعترف ان صلة القربى تربطه بالناس.

بمثل هذا الكره الانساني، يصفع صاحبك وجه الاقوياء.. يحبهم كأخوة ضلوا ويكرههم كطغاة كان يجب ان يظلوا اخوة... ولكنهم ركبوا الى الطغيان رعونتهم، فأنساهم الطغيان منابتهم، وانستهم نشوة الوصول انسانيتهم!

☆☆☆

ان النعجة الشاردة — يا صاحبي — لا يبلغ كره الراعي لها درجة يود معها ان يقدمها للذئاب وليمة فاخرة، فهو، وان حرّك غيظها لسانه، فاستنزل عليها نقمة الذئب وضراوة انيابه، لا يبغي لها في اعماق نفسه سوى الصلاح والرشاد!!

الا ليت الناس جميعاً، يؤمنون كصاحبك بالكره الانساني، ليحررهم هذا الايمان النبيل من رق الذات المتمردة الجامحة، من عبودية «الانا» وشهوتها، من الكره البهيمي المطلق، من هوى النفس، واغوائها المهموس!!

هذا الايمان — يا صاحبي — هو ذات الوعي، والوعي، كما تعلم، قاهر الملق ومحطم الاصنام.. الاصنام لا من نحاس وتمر، ولكن من لحم ودم لم يمازجها نبل، ولا سرت فيها نوازع انسان.

امام صمود الوعي وعناده.. كم تحطم جبروت، وكم تعفرت جباه ما جال فيها يوماً ماء الحياء، فرضها نكد الزمن قبلة للتعبد رجسة، ونصّبها لهو القدر، قدراً متعسفاً يقسّم المصائر ويوزع الحظوظ بين الناس!!

من روائع النغم

السمفونية الخامسة

بقلم حكيم شريف

انها السمفونية الوحيدة المعبّرة عن جميع المشاعر الانسانية الكاملة « نيتشه »

لعل الكثيرين الذين كتبوا عن حياة بتهوفن الخاص منها والعام، قد اغفلوا الكتابة عن مواضيعه الموسيقية الضخمة او مرّوا عليها مرّ الكرام، وقد يعتقد البعض ان الكتابة عن مؤلفات عبقرية الالم امر سهل بسيط ولكن الحقيقة ان مؤلفات بتهوفن هي كشخصيته من اعمق المؤلفات التي عرفتها الموسيقى حتى الآن.

تعريف السمفونية: ان السمفونية تتألف عادة من اربع حركات او ثلاث والحركة الاولى منها تكون سريعة مليئة بالحياة، والثانية بطيئة هادئة عذبة الانغام والثالثة لحن مرح مستقل تقريباً بذاته ويكون غالباً من الحان المانويت Minuett الراقصة. وهي رقصة كان يقوم برقصها في الماضي طائفة النبلاء والاشراف في حفلات قصورهم الرسمية، واما الحركة الرابعة فهي اوسع الحركات اطلاقاً وهي شاملة لاصول الحركات الثلاث السابقة.

هذا هو هيكل السمفونية كما وضعه وابتكره الموسيقار الاكبر هايدن Haydn وسار عليه وزاده قليلاً دون تغيير في الاصول موتزارت اما بتهوفن فانه ادخل تعديلاً كبيراً جوهرياً على الحركة الثالثة، اذ حررها من قيد انغام المانويت الراقصة وغيرها، كما جعل من السمفونية اداة للتعبير عن فكرة من الفكر او موضوع من المواضيع.

في عام ١٧٩٩ — ١٨٠٠ في هذه الفترة التي سبقت تأليف السمفونية الخامسة احب بتهوفن الكونتيس تريزا دي برونسفيك واحبته واستمرت خطوبته لها اربع سنوات، على ان التقاليد والروابط العائلية وفروق الثروة والمكانة الاجتماعية وقفت حائلا دون زواج الحبيبين فانفصلا عن بعضهما ولم يفصلهما عن الحب شيء الا الموت الذي انقض على بتهوفن اولاً، وكان يقول بعد ان اجبرا على الفراق: « لقد كانت الملاك الوحيد الذي عرفته بعد امي ».

وخلدها بتأليفه السمفونية الخامسة دومينور[1] التي انهاها في فترة طويلة الامد ولما عزفها للمرة الاولى عام ١٨٠٧ لم يفهمها احد من جمهور المستمعين على حين نهض ناقد مشهور وصاح مشيراً باصبعه الى بتهوفن[2]: سوقوا بتهوفن الى مستشفى المجاذيب فهناك مكانه. ولم يسمع بتهوفن كلمة واحدة مما قاله الناقد لان الصمم ذهب باكثر سمعه واصبح يضع في اذنه الوحيدة التي بقيت شبه سالمة بوقاً يستجدي الاصوات اليها

ولما سأله فيما بعد شندلر[3] عما يقصده بقطعته هذه اجابه بتأثر وهو يرنو بعينيه الى الافق وقد تذكر تريز: « هكذا يقرع القدر الابواب ».

(١) مينور يقابل المينور في الموسيقى الغربية النهاوند في الموسيقى الشرقية، والمينور هو النغمة الصغرى في الموسيقى الغربية.

(٢) يذهب البعض ان هذا القول قصد به السمفونية السابعة، بينما يرى قسم آخر ان هذا القول لا ينطبق الا على السمفونية الخامسة لان السابعة سهلة الفهم تفسر نفسها بنفسها.

(٣) انطون شندلر مؤرخ حياة بتهوفن بعد وفاته

ما لصاحبك وللناس.. فلصومعة يحيا في سكينتها، ويقبع في جوفها بطمأنينة الناسك، وانطوائية الاوّاب، ابرّ بمثله التي يتعبد، من مجتمع مستهتر خرافته الكبرى مثالية انسان آمن بالجوهر الالهي السامي في الانسان!! ماله وللناس.. انه كافر بهم ولن يرد عليه ايمانه الا معجزة خارقة تعيد هذه الدمى الحقيرة التي جثمت فوق كواهلها رؤوس من الصلب يحركها وعي المادة — ان تعي المادة — وينساب في شرايينها دم من بترول.. تعيدها ناساً، تتلألأ في سماتهم سمات الانسان!

وبانتظار تلك الخارقة.. لا تلمه بربك، ان فنيَ في تلك الانوار الباهتة الكئيبة، ينفثها حوله فانوس مريض كفانوس المرحوم « ديوجين »..

احمد سويد

قال شومان : اذا تكلم المرء عن الملحنة فانما يعني بذلك بتهوفن .

ثلاث طرقات رهيبة قاسية تعقبها طرقة رابعة طويلة الامد ، هذه الضربات الرتيبة الاربع هي اول ما نلاحظه في مفتتح الملحنة الخامسة وعليها ترتكز الحركة الاولى. وليوضح بتهوفن فكرة الصراع العنيف بين الانسان والقدر، جعل الفرقة الموسيقية قسمين الاول ويشتمل على الآلات النحاسية والثاني يضم الوترية. ورمز بتهوفن للقضاء والقدر بموسيقى الآلات النحاسية وعن الانسان بموسيقى الآلات الوترية، ففي الحركة الاولى يلمس المستمع بوضوح كيف تفتتح الآلات النحاسية بضرباتها الاربع الآنفة الذكر معبرة عن يد القدر تطرق باب الانسان الضعيف مؤذنة بالكفاح العتيد بينهما، هذه الطرقات التي يردد الصدى تتابعها فيدفع الفزع والخوف الى ضلوع الانسان وكأنما اراد بتهوفن ان يرمز بهذه الحركة الى الظروف القاهرة التي اجبرته على الانفصال عن حبيبته تريزا، اذ نسمع هذه الطرقات تتكرر بين الحين والآخر بطرق مختلفة تارة في علو ومرة في خفوت ، طوراً تصطدم بالموسيقى الوترية المعبرة عن قوة الانسان فتطغى عليها حتى لا يكاد الا القليل يصل الى الاذن منها ، كأنما يعني هذا استسلام الانسان وخضوعه لمشيئة القدر الذي لا يرحم وتنتهي هذه الحركة بثلاث ضربات تعاد ثلاث مرات وضربتين تعاد مرتين ثم ضربة سريعة تعقبها اخرى طويلة يكون بها ختام الحركة الاولى التي تعطي بمجموعها فكرة صمود الانسان لأهواء القدر. والحركة الثانية تعبر عن اليأس القاتل الذي يتملك الانسان حيال هذه القوة الخفية التي يجابهها فيغذي يأسه بأمل الانتصار ، فيشيع في نفسه التفاؤل، ذلك التفاؤل الذي صوره بتلك الموسيقى الحرة الرائعة التي تتغلغل في الاعماق بحنان فتهز المشاعر ببساطتها وروعتها وتدفقها وانسيابها المبهج ، حتى تنتهي كما بدأت بالتفاؤل الذي يراود الانسان بأمل الانتصار .

واما التجديد في الموسيقى فانه يبدأ بالحركة الثالثة بذلك التشرزو Scherzo[٤] الانطلاقي المتحرر من القيود الفنية والذي يمهد له بمقطعين موسيقيين رهيبين هادئين من الآلات الوترية كأنما يعبران عن الحذر او الخوف من تحدي قوة القدر وجبروته ، ويعقب هذين المقطعين من الابواق النحاسية نداء جاف عميق قاس يسيطر على المشاعر بقسوته ورهبته كأن القدر يبغي القضاء على الانسان مرة واحده . فالموسيقى معجلة آخذ بعضها برقاب البعض، فضربات القدر المفاجئة ، والفزع والرهبة والوجل ، وبصيص الامل الذي يبدو للانسان ويراوده بين فترة واخرى والذي نلمسه بوضوح حين تطغى الآلات الوترية على النحاسية. بسلم موسيقي طويل ينتهي بنشيد عذب من الموسيقى دعاه بتهوفن نشيد الانتصار وبانتهاء هذا النشيد تندمج الآلات النحاسية بالآلات الوترية حتى لا تكاد الاذن تميز سوى لحن واحد كامل يبتدىء بسلم طويل من القرار الموسيقي ينتهي بجوابه وبه تدخل الملحنة دون سابق انذار في الحركة الرابعة . ويكاد المرح يكون مفقوداً في الحركة الثالثة بخلاف اكثر ملاحنه كالثالثة والسادسة والسابعة والثامنة .

ان الحركة الرابعة من هذه الملحنة معبرة تمام التعبير عن شخصية بتهوفن التي تأبى الهزيمة ولا تعترف بالاخفاق ، فقد تحطمت على صخرة نفسيته جميع قوى القدر والطبيعة والتقاليد ، واول ما يستشف من موسيقى هذه الحركة اصول الحركات الثلاثة السالفة الذكر بمرورها السريع الصاخب وتميز بها محاورات كأنها الوميض الخاطف بين الانسان والقدر، فأحياناً تعلو موسيقى الآلات النحاسية على الوترية وطوراً تسيطر الموسيقى الوترية على النحاسية وهكذا دواليك حتى تندمجا معاً في النهاية كأن القدر قد خضع لمشيئة الانسان ، فالموسيقى كلها حياة ومرح وبهجة في انسيابها وتدرجها وارتفاعها وخفوتها حتى انعكست وانطبعت شخصية بتهوفن فيها، فهو يؤمن بالانسان والانسانية الى اقصى حدود الايمان ويحلق بهما حتى يصل في ختام الملحنة الى انتصاره النهائي على القدر . وحين استمع نيتشه اليها فيما بعد قال : انها الملحنة الوحيدة المعبرة عن جميع المشاعر الانسانية الكاملة. وتختتم هذه الملحنة بنوتتين طويلتين قويتين منفصلتين عن بعضها تماماً تعقبها ثلاث نوتات منفصلة هي الاخرى عن بعضها بفاصل قصير جداً ، تعاد هذه النوتات جميعها مرة ثانية ثم تنتهي الملحنة بطرقة قصيرة منفصلة تعقبها اخرى طويلة جداً يكون بها ختام هذه الملحنة الخالدة على الزمن . وبعد فهذا اثر من آثار الابطال الانسانيين، انه اشعاع سام، قوي الوهج، يملأ القلوب ايماناً بها . انه جهد النابغة المعذب التعس الذي تلمس صراع الانسان مع القدر بنفسه، والذي حاول ان يخلق من هذا الصراع واليأس والشقاء الرابض والمخيم عليه انسانية نادرة ، وكثيراً ما ينبثق الخير العميم من صميم اليأس القاتل ليكون هذا الخير في انسانيته اعظم شاهد على عظمة وخلود الانسان .

دمشق — صميم شريف

---

(٤) تشرزو معناها الموسيقي ، حياة او مرح او سرعة مليئة بالحياة.

هيهات

الى روح عدنان بابا منتحراً في قلق ساعر
اي شيء انت هنا في المجهول يا صديقي ؟

☆☆☆

على يدي وفي غدي
رؤىً لدى كاسات ضائعـة الآهات
صدى من الخمر صدى
امواجهـا من الازلْ
هَـزء الامـل
والمـدى غدٌ سدى
يُليح في الحانةِ وهم الموعدِ

☆☆☆

هيهـات يا خمّارْ تعبثُ بالاعمـارْ
زمانُنا :
مات على شفاهنا
ذبالةً تحترقُ
يشهق فيها الليل ثم يغرقُ
ارجوحـةً مجنونـةً
ينداحُ فيها عدمُ من الوجود ابكمُ
وجانحٌ يطوي الرؤى من الضياع ازرقُ
هيهاتْ هيهات،تعتصر الآهات،في مخلب الظلمة ريشُ الفجر مات
فاسقِ بنا ، نحن هنا ، رحب الدنى
وادلقْ على الاوطارْ ثمـالة الاعمـار
وفي الفضاء بردُ فنـاء
هيهات يا خمـارْ

باريس — علي محمد شلق

من القيم الالمانية

فلسفة الجمال عند هيجل

بقلم محمد عيتاني

بحث مهدي الى حبيبي محمد شعبان

لقد ترك لنا هيجل كتاباً ضخماً في فلسفة الجمال* نشر بعد وفاته . يضع في مقدمته الطويلة قواعد علم الجمال . وهو يعرف هدف هذا العلم وامكانية وجوده المنطقية ويرسم الخطوط الرئيسية لمنهج البحث الجمالي .

هدف علم الجمال ، في عرف هيجل ، دراسة الفن والآثار الفنية وفلسفة الفنون الجميلة ، اما المنهج الواجب اتباعه ، فينقسم الى قسمين بينهما في الظاهر تعارض وتناقض ، واحدهما تجريبي تاريخي ، يجهد ، عند دراسة الآثار الفنية ، لاستخلاص قواعد للفن ومبادىء للذوق . . والثاني عقلي مبدأي يلم رأساً بالجمال كفكرة ويستخلص منه المبادىء العامة . ومنهج هيجل يجمع ويوحد بين هذين القسمين .

ثم يتساءل هيجل عن ماهية الفن . ويجيب بان الفن هو نتاج فردي ، ونشاط انساني ، وخلق روحي عقلي . . وهو يخاطب المشاعر الانسانية ولكن هدفه ليس إثارة الاحاسيس وبعث اللذة في النفس . واذا تساءلنا عن هدف الفن تتبادر الى اذهاننا ردود مختلفة . فالبعض يريدون ان يكون الفن نوعاً من التقليد ، ولكن لمَ نقلد ما تعرضه الطبيعة على انظارنا رغم ثقتنا بأننا سنظل دون مستوى النموذج المقلد .

وهناك مذهب آخر يعرّف الفن بأنه تعبير وليس تقليداً ولكنه لا يحدد هذا التعبير . ويوجد مذهب ثالث يقرر ان الفن هو وسيلة الكمال الخلقي ، ولكن هذا المذهب ، في نظر هيجل ، يخلط بين الهدف الاخلاقي للفن وهدفه الصحيح ، ويحد من حريته كثيراً . . وعن هذا المذهب الفني الخلقي لا تنتج غير آثار فنية باردة ودون حياة . .

فالهدف الحقيقي للفن ، في نظر هيجل ، هو تمثيل الجمال ، وتصويره ، وتحقيق الانسجام المثالي في الاشياء . ان التأمل في الجمال يولد فينا ضرباً من اللذة الهادئة الصافية السامية البعيدة كل البعد عن اللذات الحسية العادية .

والقسم الاول من مؤلف هيجل هو بحث فيما وراء طبيعة الجمال ، وهو يحلل في هذا القسم فكرة الجمال والمبادىء العامة التي تشمل كل الفنون ، وهكذا يعالج هيجل فكرة الجمال المجردة ، في الطبيعة وفي الفن المثالي . وفي القسم الثاني يستعرض المظاهر الفنية الاساسية في كافة العصور : المظهر الرمزي ، والمدرسي ، والابداعي الرومنطيقي .

وهذه المظاهر تمثل ، في نظر هيجل ، العصور التاريخية الكبرى : الشرق ، والاغريق ، والازمنة الحديثة .

اما في الشرق فقد لبث الفكر غامضاً ، غير متحدد ، باحثاً عن طريقه للتعبير ، دون ان يتمكن من العثور عليها . وفي الفن المدرسي ، تمّ ، على العكس ، انسجام الشكل والفكرة .

والروح لا يمكنها الاستقرار والراحة في هذا التوافق المدرسي حيث الشيء المنتهي المحدد يختلط باللانهاية . . ولذلك رأينا الوحدة هذه تتحطم بعد ان عجزت الاشكال الخارجية والصور المحسوسة عن التعبير عن الروح وحريتها المطلقة . . فكان الفن الابداعي .

الرمز عند الشرقيين القدماء صورة تمثل فكرة ، بخصائصها الغامضة السحرية المؤّارة بالاسرار ، فنجد الرمز يحتضن روائع الفن الشرقي اجمالا .

وفي العهد الاول من تاريخ الفن كان المبدأ الالٰهي متوحداً في الطبيعة والانسان . ففي ديانة اللاما Lama مثلا نرى الانسان يُعبد كاله . وفي دين « زرادشت » نرى النور هو الله نفسه . وهكذا كان اتحاد المبدأ الخفي ، مع الاشياء المنظورة ، يشكل

* استعنت في هذا البحث « بموسوعة العلوم الفلسفية الفرنسية – فرانك » وكتاب فلسفة الجمال – هيجل

اول مظهر من مظاهر الرمز في الفن . وفصل هذين العنصرين يعد حدثاً سامياً فيه وقد تمَّ في هياكل الهنود ومعـابدهم المقدسة . ولكننا لا نجد مثالا معبراً عن الرمز في الفن الا عند قدماء المصريين ، فالمصريون هم ، بين شعوب الشرق ، الشعب الفنان الممتاز الوحيد ، والمصريون بذلوا نشاطاً عظيما وجهوداً جبارة ليعبروا عن تلك الحاجة الفنية والرغبة الجمالية ، بالرمز ، ومع ذلك فهياكلهم وآثارهم تبدو صـامتة بكماء . . ويظهر ان الروح لم تكن قد وجدت بعد الشكل الذي يناسبها لتعبر وتتعين ، فظلت تائهة على هامش الابداع. ان هدف الفن هو التعبير عن المثالية ، اي التوفيق التام الكامل بين عنصري الجمال والفكرة والشكل المحسوس ، وعلى هذا نجد ان الفن الرمزي بذل المستحيل للوصول الى هـذا الهدف ولكن عبثاً . والذين حققوا هذا الهدف في الجمالية المثالية هم الاغريق ومن جـاراهم في الفن المدرسي . والفن المدرسي يمثل الروح بمـا هي روح . في شكل فردي . وهو لا يتعدى حدود المحسوس في الجمال . والنظرية المدرسية الجمـالية وجدت وتمثلت في الاغريق ، وهناك توافرت الشروط المؤدية الى هـذا الكمال الفني : الموقع الجغرافي ، وعبقرية هذا الشعب ، وخصائصه الخلقية والروحية ، وحياته السياسية . فوصل الفن اليوناني بسبب هذه الهبات الالهية ، الى قمته من ناحية الخلق المحسوس والابداع المتزن الرزين . .

والخلق اليوناني لا يبدو للبـاحث خلقاً في الطبيعة ، بل هو خلق روحي عقلي حر ، لا يتخذ نموذجاً معيناً فيكمله ، بل يحاول ان يكمل المجموع . . لان الموضوع والشكل هنـا متلازمان ، ولذلك فالفن اليوناني سخر جهوده في سبيل اكمـال الموضوع والشكل معاً .

واول خطوة خطاها الفن اليوناني هي الثورة على الرمز الشرقي . فهاجمه وهدمه من الاساس . وهكذا نجـد الآلهة عند اليونان شخصيات روحية تتجسد في مظاهر انسانية . وتطور المثالية المدرسية يظهر خاصة في توالد الآلهة وانحطاط بعض أنسالهم وخلفائهم وعلى الاخص في تلك الحوادث والمنازعـات التي كانت تحدث بينهم والثورات التي كانت تنزلهم عن عروش عزتهم وجبروتهم لتضعها تحت تصرف آلهة جدد غيرهم . وهذا الصراع هو في الحقيقة صراع انساني طبعي ، وهو هو القانون الثابت في الوجود .

وهؤلاء الآلهة كانوا ، في عرف الاغريق ، خالدين . ولم تكن تربطهم بالناس المعذبين أية رابطة . ومشاكل الوجود البشري ما كانت تهمهم بشيء . والآلهة ينعمون بصفاء وسعادة لا تعكرها خاطرة . ففي الاولمب ترين السعادة الازلية ؛ والآلهة ، مع ذلك ، ليسوا دائماً صفات مجردة غامضة لشخصيات عامة ومثالية صرفة ، فالى الخصائص العامة المطلقة تنضم الخصائص الفردية . وكل إله يوناني له شكل خاص وملامح معينة ، ومهمة هو ميسر لها وله جو وحقل نشاطه الخاصان . ولهذا نجد القياس مسيطراً هنا ايضاً ، فالعنصران العام والفردي في توافق تام .

أما الفن الابداعي في أسمى تطوراته فهو الفن المسيحي . وفي هذا الفن نجد ، عوضاً عن الآلهة المثالين الخياليين ، والذين ليسوا الا الطبيعة الانسانية مؤلهة ، أقول ، عوضاً عن هؤلاء نجد « العناية الالهية » نفسها تحل في الانسان (نعرض هنـا آراء هيجل على علاتها) وتمر في مختلف ادوار الحياة الانسانية من ولادة وآلام وموت وبعث ، وهدف هذا المفهوم الديني هو تمثيل الفن كموضوع يشمل في آثاره : النزاع ، والصراع ، والعذاب ، والموت والحزن العميق الذي يوحيه العدم في الحياة ، والالم في الروح والجسد .

وخارج الحيز الديني نجد الفن الرومنطيقي الابداعي تعبيراً عن العلاقات الانسانية المادية والمصـالح الاجتماعية . فنرى العواطف والافراح والاحزان تحمل طابعاً دنيوياً ومع ذلك نلمح فيها المبدأ المميز لمفهوم الفن الحديث ، اي الاحساس العميق المباشر بالشخصية الذاتية الانسانية . « الأنا » .

والفن الرومنطيقي الابداعي يختلف عن الفن المدرسي شكلاً كما يختلف موضوعاً ، مع انه فكري على وجه التخصيص . . . فأحداث الطبيعة وقواها تفقد اهميتها في نظر الابداعيين ، أو هي على الاقل لا تصل الى مرتبة الالوهية حيث حملها المدرسيون الاغريق . فالطبيعة تمحي والكون يتركز في اعماق الروح الانسانية .

ولكن ، من ناحية اخرى ، وتبعاً لاتساع دائرة الافكار الى ما لا نهاية له ، اصبحت الحياة الانسانية بكل مظاهرها وعهودها وأحوالها مادة للآثار الفنية الابداعية . . وعن هذا نتج ان الجمال لم يعد وحده هو المطلوب فحسب ، بل وجد القبح متسعاً للظهور ، ومكاناً في الابداع الفني .

وبعد ان يستعرض على هذا الوجه الفن الابداعي ، يتساءل ، هيجل ، عن هدف هذا الفن فيستنتج أنه من الناحية الدينية نجد الجمالية الاغريقية تظهر الروح متحدة بشكلها المادي ، اما في الفن الابداعي فالجمال لا يقتصر على حمل الشكل المحسوس نحو المثالية ،

ولكن حمل الروح نفسها الى هذه المثالية . . .

والله ، في الفن المسيحي ليس إلهاً معتزلا غريباً عن آلام البشر ومآسي حياتهم المضنية ، بل هو يتجسد بشراً ليشارك الانسان آلامه البشرية . والمثالية هي هنا اذن مثالية شعور وعاطفة نبيلة . اما المثالية الدنيوية فتظهر لنا في مظهرين :

الاول ، مع انه يمثل الشخصية الانسانية يتمرس بأحاسيس سامية تختلط بأحاسيس دنيوية والثاني لا يصور لنا الانسان الا باحثاً عن مصالحه الخاصة الذاتية ، وهي تسمو احياناً الى فكرة الارادة وقوة الخُلُق والطبع .

ولكن أهمّ خصائص الفن الابداعي ، دينياً ، هي تلك الروح التي تحاول ان ترضي نفسها بنفسها ، دون ان تحاول الانطلاق الى الخارج .

هذه هي الاشكال الاساسية للفن كما رآها هيجل في تطورها التاريخي واذا كان قد أهمل الفن في عصر النهضة ، فلأنه لم يكن يعتبره فناً اصيلاً ، فالنهضة في رأي هيجل مجرد عودة الى الفن المدرسي اليوناني .

برهتم هيجل ، في القسم الثالث من مؤلفه الشامل ، بتقسيم الفنون ويشير الى ان العادة درجت على تقسيمها حسب الحواس التي تخاطبها ، وتقسيمها ايضاً الى الفنون التصويرية والفنون الموسيقية ، اما الشعر المتخذ الكلام وسيلة لمخاطبة الخيال ، فهو موضوع خاص : و « هيجل » يعتمد هذا التقسيم مضيفاً اليه اصلاحات تقربه من روح الفلسفة العلمية التي كانت سائدة في عصره . فيقول ان الفن هدفه التعبير عن المثالية ، ويجب ان تقسم فروعه وتنظم حسب قرب كل منها او بعده عن هدفه . . . وهكذا تسلسلت الفنون على الوجه الآتي : فن العمارة ، النحت ، التصوير ، الموسيقى ، الشعر . وهذا الاخير هو القمة في نظر هيجل .

الهندسة المعمارية

اقتصر هيجل على وصف مختلف حالاتها ومظاهرها في عصور التاريخ ، وهو يفترض ان هذا الفن يكاد لا يخضع للنظريات المجردة . فمبادئه ، اذا صح ان له مبادىء ، هي القوانين الرياضية الغريبة عن فلسفة الجمال . فاضطر هيجل عندها الى تحديد معنى وطبيعة الآثار المعمارية والهياكل التاريخية . فهدف الفن المعماري هو — بغض النظر عن اهدافه الايجابية — التعبير عن فكرة عامة ، باشكال مستعارة من الطبيعة غير العضوية ، وذلك بأحجام مرتبة حسب القوانين الهندسية والآلية . ومهما كانت التأثرات النفسية الناجمة عن تأمل في هيكل او بناية او أثر من آثار العمارة الفنية ، فهذه ليست الا تأثرات غامضة مبهمة . . فهذه الاشكال والاحجام المادية لا تعبر عن فكرة من الفكر الا بغموض . وفن العمارة الرمزي ، هو المظهر الاول للفن كما رأينا ، يعبر عن فكرة عامة دون اي هدف آخر . فالهياكل القديمة تبدو مبهمة ، فلسفياً ، فقط حين تساعدنا على تفهم دينيات الشعوب التي تركت افكاراً لما تزل غامضة في تلك الهياكل الضخمة الجبارة .

وفن العمارة المدرسي يهدف الى اشباع الرغبة الى الجمال بتشييد الهياكل . ويختلط عنصرا المنفعة والجمال في هذا الفن فنرى ان الهياكل التي تركها هي نافعة وجميلة في آن واحد . اما فن العمارة الابداعي فللأثر الهندسي والهيكل فيه دلالة لا تخفى ولا تستتر . وهذا الفن يشيد هياكله ليعبر عن فكرة محدودة جمالية او دينية او نفسية ، وهو يرتفع فوق المنفعة والحاجة المادية ويتسامى الى اللانهاية .

واذا بحثنا في العلاقات بين هذا الفن الهندسي الابداعي وبين المعتقد المسيحي والعبادة المسيحية يتضح لنا قبل كل شيء ان الشكل الاساسي هو هنا البيت المقفل المغلق . والروح المسيحية الفردية تنطوي في عبادتها على نفسها ، عائدة الى ربها ، الى اعماق ضميرها ، وكذلك الكنيسة ، فهي الحيز المغلق من كل ناحية تقريباً ، وهي معقل الصمت والتأمل والعبادة . وهي مكان منطو على ذاته ، معد للروح المنطوية على ذاتها . واذا كانت الروح المسيحية تعود الى الضمير ، فانها ايضاً تنطلق فوق المحدود ، وهذا ما يميز بيت الله . فمعنى الهندسة المعمارية الابداعية الحر هو السمو نحو اللانهاية ، وهي خاصة تعبر عنها بترتيب اشكالها احجامها ترتيباً خاصاً ملائماً ، وعمق التأمل والسمو نحو اللانهاية يميزان الهندسة القوطية ويفسرانها (في آثارها المهمة) .

ويخلص هيجل الى ان الهندسة الفنية على كل حال ، تعبر بغموض عن حاجات النفس والعقل والروح . .

النحت

والنحت ، على العكس ، يمثل الاجسام المختلجة بالحياة ، وخاصة الجسم البشري الحي . وفن النحت يشبه الهندسة المعمارية من ناحية استخدامه المادة الصلبة للتعبير ، ويختلف عنه في ان هذه المادة ستكون في يد المثال أقرب الاشياء الى الروح ، بل هيكل الروح المباشر .

ويقول هيجل انه لكي نفهم جيداً مبدأ فن النحت علينا ان نستعرض مبدئياً المعاني الاساسية التي يعبر عنها . وقد رأينا ان الانسان هو موضوع فن النحت الاول والاخير . ولكن على المثال الطامح الى الكمال ان يعبر عن الانسان ، لا في ملامحه التي تقربه

من الحيوان ، بل في جماله المثالي الحر، المنسجم ، حيث تنعكس الروح ، وذلك بابداء ملامحه النبيلة في اوضاعه وحركاته،لان فن النحت يوفق ، او من واجبه ان يوفق ، بين الشكل والفكرة. وبسبب هذا المبدأ نرى ان فن النحت نجح وكاد يكتمل عند الاغريق المدرسيين. ويلاحظ هيجل ان جمـال الخطوط في ذاته لا يكفي لخلق الجمال المطلوب في فن النحت بل يجب ان يكون الخط معبراً عن مثالية اخلاقية او سامية. والخطوط الجميلة في وجه‌ما ، او جسم ما،هي التي تعبر عن روحيته وتبعده عن الحيوانية المتمثلة فيه من نواح اخرى. ويضرب «هيجل» مثلاً الوجه الجانبي اليوناني

ان التأملات العميقة ، والانطـواء الذاتي ، والالم الروحي ، والشهادة ، والعذاب ، والعقاب ، والموت ، والبعث وكلها خصائص مسيحية وحالات ملازمة المعتقد المسيحي، بدت غير موافقة لتكون موضوعاً للمثالين النحاتين وفن النحت يتطلب الهدوء والصفاء النفسي وانسجام الاشكال. فتضاءلت قيمة فن النحت في المسيحية واذا به من مكملات الهندسة المعمارية وتوابعها.

التصوير

اما التصوير فابداعي بالضرورة. وبه تبدأ الفنون التي يدعوها «هيجل» ابداعية. والمظهر المحسوس الذي تخلقه النفس بذاتها، ممتزجاً بالالوان، والتأمل العميق، وتلاعب النور والظلال، كل هذا من اهداف فن التصوير. وهو يستعين بهذه العناصر ، وغيرهـا ، للوصول الى درجة سامية من التعبير.

والموسيقى تتفوق على التصوير في هذا المضمار، وتصل في تحقيق هذه الغاية الى آثار اعمق وامثل لانها لا تصطدم في تعبيرها بالمكان.

الموسيقى تفاجىء الروح في مكامنها العميقة الخاصة ، حيث الشعور ، فتعبر عنه برموز غير مادية وغير منظورة.

والفكرة التي تؤلف جوهر الآثار التصويرية الفنية هي الحياة النفسية الذاتية. ان الروح بتأثراتها ، ومشاعرها ، واحداثهـا ، تعبر عن نفسها بجملة من الاوضاع المختلفة . . ولهذا كله نجد ان مركز فن التصوير هو العالم المسيحي .

ويحتاج التصوير ، في آثاره ومظـاهر التعبير عنه ، الى درجة سامية من الروحية ، لا توجد، في رأي هيجل ، الا في الفن المسيحي وهو يلاحظ ان العنصر المحسوس ، حيث يختلج هذا الفن حياةً ، هو المساحة ، والمظهر الملموس ، اي شيء ينوب عن الحقيقة .

ثم يحلل هيجل نظرية الالوان ، والنور ، والظلال، ويقول ان المصور المبدع يستطيع ان يعبر عن مختلف مظاهر الحيـاة بالالوان، والالوان ، في التصوير ، اهم من الرسم .

الموسيقى

هدف الموسيقى هو التعبير عن الروح نفسها ، وعن المشاعر الذاتية الكامنة في الاعماق، برموز، كما اسلفنا ، بعيدة عن عنصر المكان .

والموسيقى سريعة الومضات ، واللمحات ، كالروح نفسها . فيمكنها الوصول الى اسمى المشاعر وارقاها . وان توقظ فينا عوالم نائمة بصورها الكاملة ورعشاتها السحرية، والموسيقى هي فن الاحساس.

وتبين لنا المقارنة ان فن النحت ابعد الفنون عن الموسيقى . والفرق بين الشعر والموسيقى كبير ايضاً . فـالشاعر والموسيقي يستخدمان الصوت ، ولكن الصوت في الشعر ليس مطلوباً لذاته، بل هو وسيلة ، اما الموسيقى فهي اصوات صرفة تعتمد الاعداد احياناً والتموجات المنسجمة احياناً اخرى . . ثم يحاول ان يعرف الزمن الموسيقي ، والجرس ، والتوقيع والاصطحاب والهرمونيـا والميلوديا . .

الشعر

واخيراً يصل الى الشعر فيرى انه اسمى الفنون اطلاقاً ، فهو التعبير الاكمل والاعم عن الروح والمثالية والجمال . والشعر يجمع حسنات الفنون التصويرية والفنون الموسيقية معاً .

فمن حسنات الفنون التصويرية نجد الشعر يعكس لنا لوحات كاملة ملونة كمظاهر الطبيعة . وهو كالموسيقى يعـبر عن المشاعر الانسانية بما تنطوي عليه من عمق وخاصية ، مضيفاً الى كل هـذا وضوح الفكرة او توضيحها على الاقل .

وللشعر وحده مزية عرض حادثة بكل اقسامها وتطوراتها وتصوير عمل انساني تام ، وكل المظاهر والاحداث في عوالم الطبيعة والاخلاق والتاريخ ، ومناظر الحياة الانسانية اليومية يمكنها ان تكون من موضوعات الشعر ، ويستدرك هيجـل فيشير ويلح بالاشارة الى ان هذه الحوادث كلها يجب ان تؤخذ من ناحيتهـا المعنوية والمثالية والجوهرية الخالدة .

وعالم الشعر ، في نظر هيجل ، هو عالم الروح على الاخص ، والافكار الروحية والتأملات العاطفية والاحاسيس ، ورغبات النفس السامية ومقدراتها المتواضحة في التأمل ، وهذا كله يؤلف الفكرة الشعرية التي يحسن بالشاعر التمرس بها .

وعلى الاثر الشعري ان يكون ذا وحدة وحياة. والوحدة هي الصفة الواجبة قبل اية صفة اخرى. والشاعر يشترك مع الموسيقي والمثال والمصور وغيرهم في صفات عديدة كالخيال والاصالة والعبقرية والتجديد، ويتميز عنهم بصفات خاصة تلمّ بعبقرية الشعر الذاتية:

على الشاعر ان يكون قد تأمل طويلاً وبهدوء في الطبيعة الحية، وعليه ان يكون ملماً بدقائق ودخائل القلب البشري وهو يقصد الشاعر بصفة عامة. كالشاعر المسرحي والملحمي والغنائي والريفي الرعائي الخ.. وعليه ان يضيف الى ثروته العاطفية والعقلية ثروة جديدة من التجارب والافكار والمشاعر المهضومة والمتحولة في نفسه صوراً، وعليه ان يتتلمذ على الحياة، مساراً باختبار طويل..

«حتى لتظن ان هيجل يريد اعداد متصوف لا شاعر» ويجب ان يتأمل الشاعر في الزمان تأملاً هادئاً، فالشعر يناسب الشيخوخة اكثر مما يناسب توثب الشباب واضطرامهم، وهكذا يسهو هيجل عن الامثلة التاريخية والحقيقة الواقعة، فيستنتج ان اكمل الآثار الشعرية هي من نتاج الاعمار المتأخرة، بل هي بنت الشيخوخة ويضرب امثلة هوميروس وسوفوكليس وملتون!!

هذه فلسفة «هيجل» الجمالية. او هذه خلاصتها على الاصح، ولا يسعنا، مهما كانت نظرتنا الى امكانية العلم الجمالي، ومهما كان رأينا في الجمال ومذهبنا او تذوقنا له، الا الاعجاب بشمول النظرة التي القاها هيجل على الفنون المختلفة والآثار الفنية من آثار وكتب وموسيقى الخ... محاولا تأسيس مدرسة في فلسفة الجمال

ونحن، بسبب عمق النظرة الحديثة الى الفنون، لا نستطيع ان نوافقه اليوم على كل المبادىء التي اوردها، ولقد اهمل «هيجل» بعض العصور الفنية التي ظل المستشرقون منذ «ابيلارد» يتغنون بجمالاتها ويجدون تفانيها في سبيل الحق والخير والجمال «واعني بها العصور الاسلامية» وانا لا اتصور «هيجل» الا مطلعاً على التراث الاسلامي ولكن شغفه بالتعميم واستنتاج القوانين المطلقة المجردة منعاه من التعريج على مفهوم الحضارة الاسلامية الجمالية، لأنه يناقض بعض تفصيلات فلسفته كما هو ظاهر. فالحضارة العربية الاسلامية حركت مسائل تتساوى عمقاً واتساعاً مع تلك المسائل التي الم بها هيجل في نظرته التاريخية والفلسفية الى الجمال والفنون.

وقد ارضى هيجل، في كتابه عن «فلسفة الجمال» تلك الروح الفلسفية العلمية التي كانت سائدة في عصره ووضع في الحقيقة اسساً لهذا العلم المعقد العميق.

وهو، بين الفلاسفة اول من تكلم عن الجمال كوحدة، بعد ان قضى هذا الجمال احقاباً طويلة حائراً بين القيم الاخلاقية والعلم الفلسفي بين افلاطون وارسطو والقديس اغسطين.

وقد نحاول، في مقال آخر، نقد مفهوم الجمال عند «هيجل» لا على ضوء العلم ونظريات هتشسون، واندره، وشيلنج وكنت وسيجوند، بل من وجهة نظر كل فن من الفنون على حدة كما تبلور وتحدد في الآثار الفنية المختلفة عبر التاريخ، لان الطموح الى تركيز اسس علمية للجمال هو نوع من النظر النسبي، والاجتهاد المجرد البعيد عن المفاهيم الحديثة، التي تريد ان تبني صروحاً جديدة في عالم جديد.

محمد عيتاني

توزع الاديب في

لبنان سوريا العراق الكويت البحرين ايران عدن المملكة العربية السعودية
المملكة الاردنية الهاشمية فلسطين اليمن حضرموت مصر ليبيا تونس الجزائر تطوان طنجة
مراكش ليبريا السودان الحبشة ممباسا تزيجا غينيا الفرنسية الصومال الكامرون غينيا البرتغالية
كران بسام موريتاني السودان الفرنسي السنغال ساحل العاج نيجاريا سرّاليون ساحل الذهب
فرنسا سويسرا تركيا ايطاليا انجلترا كندا الولايات المتحدة المكسيك البرازيل الارجنتين
شيلي بوليفيا الاورغواي الجوادلوب فنزويلا اوستراليا اندونيسيا الهند ملايا

الآبـاء والابنـاء

للكاتب الروسي سرجيفتش تورجنيف ١٨١٨ — ١٨٨٣

بقلم السيدة ماهرة النقشبندي

•

الاديب الروسي* الذي تمثل فيه الثقافة الغربية والذي قرأ ادبه اهل اوربا قراءة لم تتح لاديب روسي قبله. ولد في مدينة اوريل ١٨١٨. وعاش في صدر شبابه حياة بوهيمية وابتدأ حياته الادبية بقرض الشعر واصبح غنياً بموت والدته عام ١٨٥٠. نشرت له المجلات عام ١٨٤٧ سلسلة من المقالات جمعها بعد ذلك بسنوات خمس في كتاب واحد بعنوان « صور رياضية » وفي نفس السنة التي نشر فيها كتابه اي عام ١٨٥٢ حكم عليه زمن نقولا الاول بعدم مغادرة منزله لتطرفه في مدح المؤلف جوجول. اما قصته « الآباء والابناء » التي ظهرت عام ١٨٦٢ فهي تمثل التناقض في الافكار بين الجيل الروسي الناشيء وآبائهم المدبرين عن الحياة، ولقد سر منها الجيل القديم وازعجت الجيل الجديد. وتعتبر شخصية بازاروف الفوضوي اقوى شخصية في آثار تورجنيف الادبية ولكن النقاد المعاصرين نظروا اليها وكأنها شخصية كاريكاتورية لا تمثل حقيقة مطلقاً. لقد اضطر تورجنيف الى ترك روسيا من جراء المحيط الذي لم يفهمه ووجد صدراً رحباً في فرنسا وبين ادبائها ولا سيما فلوبير وموباسان. وحينما عاد الى روسيا في آخر زيارة عام ١٨٨٠ لقي ترحيباً عظيماً من الناس، ولكنه عاد الى فرنسا ومات فيها بعد ثلاث سنوات

⁂

القصة

رجيع اركادي كيرزانوف الى بيت والده نيكوليا بعد ان حصل على الليسانس من جامعة سنت بيترسبورج. وقد صحب صديقه القديم الدكتور يفجيني بازاروف المتمرد على التقاليد.

لقد وجد والده في ماركينو (مزرعة البؤس) يواجه المشاكل التي سببها الرق في روسيا سنة ١٨٥٩ وكانت والدته قد توفيت منذ سنين عديدة، وكان والده وهو في منتصف العمر يعيش مع امرأة شابة « فنتيجكا » وقد انجبت له ولداً.

وقد صرح اركادي الذي يعتنق الافكار الحرة الحديثة انه لا يعارض هذا الوضع. اما عمه بافيل فقد جعلته الآراء الحديثة يمثل الرجعية، بعد ان كان يمثل الرأي الحر في العهد القديم لم يعجبه بازاروف وقد علق عليه بقوله — انه لا يؤمن بالمبادىء لكنه يؤمن بالضفادع — مشيراً الى تجارب الدكتور في علم الاحياء. « في ذلك الوقت لم تكن كلمة نهلست Nihilist تعني الفوضوي المدمر لكنها كانت تعني بكل بساطة الشخص الذي لا يؤمن بمبدأ الخضوع والطاعة للدولة » لم يكن بازاروف رجلاً فناناً بل كان عالماً يجري تجاربه على الاحياء الصغيرة ليثبت ان النموذج المفرد من كائن كاف للحكم على النوع باسره.

قصة

ذهب الصديقان الشابان الى عاصمة المنطقة لزيارة بعض الاصدقاء. فقابلا السيدة كوكشينا المدافعة عن حقوق السيدات وبواسطتها تعرفا على صديقتها الارملة الشابة الفتية السيدة آنا اودنتزوف

* عن الانجليزية من كتاب Famous Love Scenen Mason

وعلى اختها الصغرى كاتيا وقد اعجب بها بازاروف من النظرة الأولى وقال لاركادي ان آنا تشبه الرغيف البارد القديم. ورغماً عن ذلك فقد اهتمت به واهتم بها. ثم زارا والدي بازاروف وكانا زوجين لطيفين من الطراز القديم مشغوفين بابنهما دون محاولة التعرف على آرائه الحديثة.

وعندما يرجعان الى ماركينو يقبّل بازاروف فنتيجكا فتصده بوفق وحينما يبصرهما العم بافيل، يغضب لشرف اخيه، ويرغم بازاروف على المبارزة. يصيب بازاروف خصمه بجرح طفيف فيعمل له الاسعافات الاولية. ويطلب بافيل من اخيه ان يتزوج من فنتيجكا فيخبره اخوه انه لم يمتنع عن ذلك الا خوفاً من ان يخدش كرامة اسرة بافيل.

ثم يزور الصديقان اسرة اودينتزوف مرة اخرى. وحينما يطلب اركادي من كاتيا ان تقبله زوجاً تخبره انه قد استولى على قلب اختها، وانها لا تستحق منه كل هذا الاهتمام فهي معدمة وليست على شيء من الجمال والذكاء. اما بازاروف الذي كان في الواقع يحب آنا وقد حظي برضاها فانه كان يعتقد ايضاً ان اركادي يحبها. فيتركها وكلاهما يجاهد أن يخفي شعوره وقد قالت عندئذ ان اركادي شاب وليس مثلي ومثلك يا بازاروف.

مشهد الحب

بعد قدوم بازاروف بيوم واحد جلست كاتيا على مقعدها الحجري المألوف وبجانبها اركادي يطلب منها ان تذهب معه الى الكنيسة. كان ذلك قبل موعد الغداء بساعة واحدة. وكان صباحاً ندياً تلاشى ليحل بمكانه يوم حار محتبس الهواء. كان وجه اركادي يفصح عما لقيه في اليوم السابق من عذاب. ويلوح في عيني كاتيا القلق وانشغال البال. فان اختها قد دعتها الى غرفتها بعد شاي الصباح مباشرة. وبعد تمهيد من اللطف الذي كان يفزعها، نصحتها ان تكون اكثر احتراساً في سلوكها مع اركادي وخصوصاً عليها ان تتجنب الجلسات الانفرادية معه لانها بذلك تلفت نظر عمتها وسائر من في المنزل، وزيادة على ذلك لم تكن آنا في حالة اعتيادية حتى في الليلة السابقة. وكانت كاتيا مضطربة تشعر بخطأها لاصغائها لتوسلات اركادي وقد صممت ان تكون هذه آخر مرة تلقاه فيها.

قال اركادي والخجل يعقد لسانه: — كاترينا منذ ان نعمت بسعادة المعيشة معك تحت سقف واحد ونحن نتحادث في امور كثيرة بينما هنالك شيء مهم جداً بالنسبة الي.. سؤال واحد لم اوجهه اليك حتى الآن. ولقد قلت البارحة انني قد تغيرت هنا كثيراً... واستطرد متجنباً نظرات كاتيا المستفهمة التي كانت توجهها اليه. — لقد تغيرتُ حقيقة تغيراً عظيماً وانت تعرفين ذلك اكثر من اي شخص آخر.. فأنت التي يرجع اليك فضل تغيري. فقالت كاتيا:

— انا..؟ انا..؟ فواصل اركادي حديثه: — انا الآن لست ذلك الشاب المغرور الذي كنته عند قدومي هنا، ولم ابلغ الثالثة والعشرين دون ان تعلمني الحياة شيئاً.. اريد ان اكون نافعاً.. واريد ان اكرس كل قواي للحقيقة. لكنني لن ابحث عن مثلي العليا فقد وجدتها بقربي تواجهني بنفسها. حتى الآن لم اكن اعرف نفسي وقد كلفتها اموراً فوق طاقتها. واخيراً تفتحت عيناي.. فشكراً لهذا الشعور. ارى انني لا اعبر عما في نفسي بوضوح لكنني ارجو ان تفهميني. لم تجبه كاتيا وكفّت عن النظر اليه. وسمع فوق رأسه طائراً يغرد غير هياب تخفيه اوراق شجرة البتولا. ثم قال بصوت متهدج:

— اعتقد ان من واجب كل انسان ان يكون صريحاً مع هؤلاء الناس القريبين الى نفسه.. وعلى ذلك فقد صممت.. وهنا خانته فصاحته فتلعثم وارتبك فسكت ليجمع شتات نفسه. اما كاتيا فلم ترفع نظرها اليه وكأنها لم تفهم ماذا يعني باقواله تلك. وكأنها كانت تنتظر شيئاً.. وقال بعد ان سيطر على نفسه بجهد جهيد.

— يخيل الي انني سأثير عجبك.. خصوصاً منذ ان بدا لك شعوري هذا، فقد وبختيني امس اذا كنت تذكرين.. وطلبت مني ان التزم الوقار.

واستمر اركادي يتكلم كرجل يسير في مستنقع ويحس في كل خطوة يخطوها انه يغوص الى الاعماق، لكنه يتقدم مسرعاً ليتخلص منه بأسرع ما يستطيع.

— ان التوبيخ غالباً ما يصيب هدفه، لكنه في احيان كثيرة يقع على الشباب الذين لا يستحقونه. لو كان عندي شيء من الامل «مدي يد المعونة الي» كان يتحدث يائساً.. » اما كاتيا فلم تدر رأسها اليه».

وسمعا في تلك اللحظة صوت آنا واضحاً وهي تقول:

— لو استطيع ان اصدق ما تقول:

فسكت اركادي حالا وشحب وجه كاتيا.. كانت آنا وبازاروف يسيران في الطريق الضيق الذي يمتد محاذياً الشجيرات التي تغطي الكنيسة ولم يكن في استطاعة كاتيا واركادي رؤيتها لكنهما كانا يسمعان كل كلمة يقولانها حتى حفيف ثيابهما وحتى صوت تنفسهما ثم سارا بضع خطوات ووقفا امام الكنيسة. وتابعت آنا قولها لقد رأيت اننا قد ارتكبنا خطأ فظيعاً فنحن

الاثنان قد قطعنا مرحلة الشباب الاولى«وخصوصاً أنا » وقد رأينا الحياة وتذوقنا حلوها ومرها وها نحن قد تعبنا منها . فلماذا نتصنع عدم معرفتها . . ؟ وهل هذا من الذكاء في شيء . ؟

لقد اهتم كل منا بالآخر في البداية ولم يكن ذاك الا حب استطلاع اما الآن . . فقال بازاروف معقباً .

— اما الآن فقد اصبحت شيئاً مهملاً قديماً .

— انك تعلم ان هذا ليس سبب سوء تفاهمنا . . لكن ايا كان السبب فاننا لم نعد نحتاج الى بعضنا وهذا هو السبب الرئيسي لقد كان بيننا تشابه كبير لم نلاحظه في اول الامر . اما الآن فاركادي . . فسأل . — هل اصبحت تحتاجينه .

— اسكت يا يفجيني . . لطالما قلت لي إنه لا يعبأ بي بينما لاحظت دائماً انه يعجب بي . . وانا اعرف انني لا اصلح الا ان اكون خالته . لكنني لا اخفي عنك انني فكرت فيه في بعض الاحيان بعاطفة الشباب وبشعور بريء كان له سحر خاص . فقاطعها بازاروف بصوت ثابت مخنوق يجيش بالحقد والمرارة .

— ان كلمة اغراء اكثر ملاءمة في مثل هذه الحالات . وقد كان اركادي غامضاً في تصرفاته معي يوم امس . فلم يتكلم عنك ولا عن اختك . . ان في هذا دلالة خطيرة ، فرددت أنا قائلة :

— انه كالاخ لكاتيا . . وانا احب هذا منه . . ويجب علي ان لا اسمح باية علاقة بينهما . فقال بازاروف ببطء . .

— ان شعورك كأخت هو الذي يدفعك الى ذلك !

— طبعاً . . لكن لماذا نحن واقفان هكذا . . ؟ دعنا نسير ، انه لحديث غريب . . اليس كذلك . ؟ ولا استطيع ان اصدق انني قد تماديت معك في كلام من هذا النوع . . انك تعرف . . انني اخافك وفي الوقت نفسه اثق بك لانك في الحقيقة رجل في غاية الطيبة .

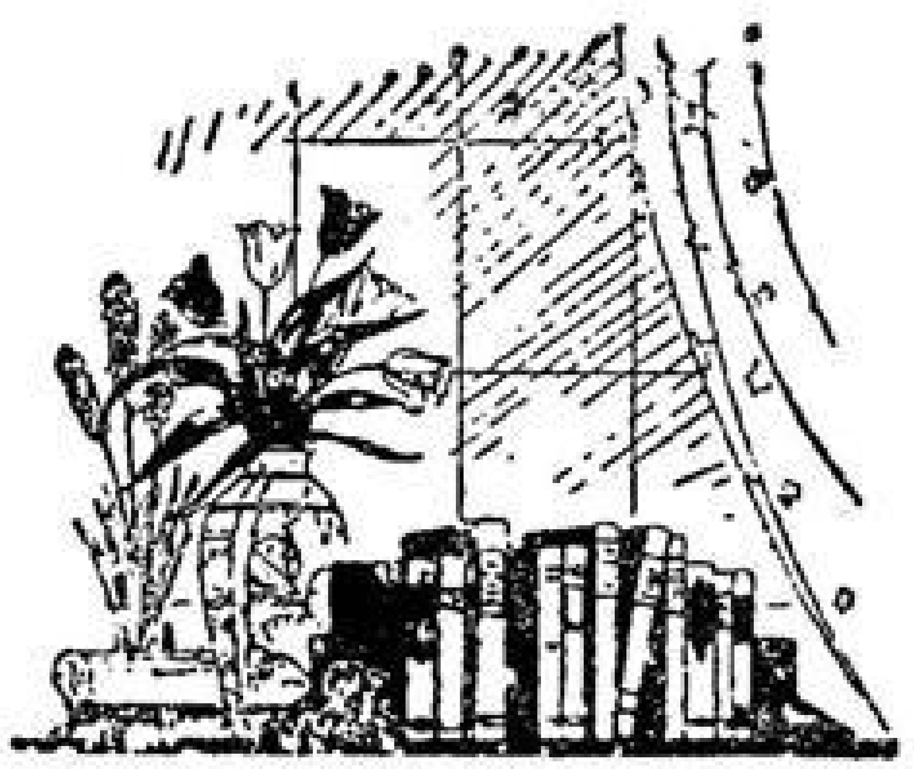
— اود ان اخبرك اولا انني لست بالرجل الطيب ابداً وثانياً بعد ان اضعت كل مالك من اهمية عندي تخبريني انني رجل طيب ، ما اشبهك بمن يضع اكليلاً من الورد على رأس ميت . فاجابته آنا :

— لسنا مسؤولين ، ثم هبت ريح خفيفة اخفت كلماتها طي حفيف الشجر . . وبعد صمت قليل سمعا بازاروف يقول .

— طبعاً انت حرة . .

ولم يسمع بعد صوتها . . لقد تلاشى وقع اقدامها وسكن كل شيء . فالتفت اركادي الى كاتيا فوجدها جالسة كما كانت وقد زاد رأسها انحناء . فقال بصوت مرتجف وهو يضم يديه بقوة :

الاديب



☆

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير (كانون الثاني)

تدفع قيمة الاشتراك مقدماً وهي

الاشتراك العادي:

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : ١٥٠ قرشاً مصرياً او ٦ دولارات ونصف

في الولايات المتحدة ١٠ دولارات في الارجنتين ٥٠ ريالا

اشتراك الانصار :

في لبنان وسوريا : ١٢٠ ليرة كحد اعلى

في الخارج : ١٤ جنيهاً مصرياً او استرلينياً او ٦٠ دولاراً كحد اعلى

☆

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

●

للاعلان تراجع ادارة المجلة

○

ادارة الاديب : باب ادريس ، شارع الكبوشية

تلفون { الادارة : ٤٧ — ٩٢ — المنزل : ٣٧ — ٤٨ } Tél. { Direct. : 92 - 47 — Dcle. : 48 - 37 }

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : **البير أديب**

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب — صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت — لبنان

— كاتيا سأحبك الى الابد .. ولن احب سواك .. اخبرك هذا راجياً ان اعرف رأيك فيّ . واسألك ان تتزوجيني ، بالرغم عن انني لست غنياً لكنني مستعد لاية تضحية في سبيلك .. انك لا تحبينني لانك لا تصدقين اقوالي وتظنينني اتكلم بلا روية . لكن تذكري ايامنا الاخيرة وما فيها من حلاوة وسحر، وقد كان عليك ان تعلمي منذ زمن بعيد ان كل شيء عدا حبك قد اضمحل وتلاشى ولم يترك في نفسي اثراً . انظري الي واسمعيني ولو كلمة واحدة ترتاح لها نفسي القلقة اسمعيني الكلمة التي تقولها الفتاة لحبيبها .. احبك فنظرت كاتيا اليه نظرة مشرقة ثابتة وبعد تردد طويل ارتسمت على ثغرها بسمة ضعيفة وقالت : — نعم .

فقفز اركادي من المقعد الحجري وقال مهتاجاً .

— نعم ! قلت نعم : هل تعني انني احبك وانك تصدقيني؟ ام ماذا ؟ انني لا اجرؤ ان اتصور ..! فاعادت كاتيا قولها : نعم ففهم في هذه المرة ماذا تعني فأمسك بيديها الكبيرتين الجميلتين وضمها الى قلبه وهو مبهور الانفاس مذهول النظرات يردد اسمها .. كاتيا كاتيا .. من اعماق قلبه وهو لا يكاد يستطيع الوقوف . اما هي فقد اجهشت في البكاء من اعماق قلبها وهي تبتسم خلال دموعها .. ان من لم ير في عيني حبيبته مثل هذه الدموع لا يعرف بعد الى اي مدى من الجهد المضني المشوب بالحياء ونكران النفس يصل المرء الى السعادة في الدنيا .

وفي صبيحة اليوم التالي طلبت آنا، بازاروف الى مخدعها . وقد ناولته، وهي تخفي ضحكها ، ورقة مطوية كانت رسالة من اركادي اليها يطلب منها الزواج من اختها .. فتفرس في الرسالة ملياً وهو يجاهد ان يضبط نفسه ليخفي ما تأجج في صدره من حقد .. ثم قال :

— اذن هكذا سيكون .. وانت حتى البارحة كنت تظنين ان أركادي يحب كاتيا كأخت . فماذا انت فاعلة الآن ؟

— ماذا تنصحني ان افعل ؟ قالت ذلك وهي لا تزال تضحك فأجابها ضاحكاً وهو ابعد ما يكون عن السرور ، ولم يكن ميله الى الضحك باكثر من ميلها اليه :

— اظن ان من واجبك ان تباركي زواج هذين الشابين . انه زواج موفق من كل وجه .. فحالة اركادي جيدة ، وهو الابن الوحيد لاب كريم الاخلاق لن يجرب ان يزعجه في يوم من الايام. اخذت آنا تروح في الغرفة وتجيء . وكان وجهها يتورد بالانفعال من وقت لآخر ثم يأخذ في الشحوب . قالت :

— اترى ذلك . اذن لا مانع عندي ، وانا مسرورة لسعادة كاتيا واركادي .. لكنني سأنتظر جواب والده اذ سابعث من يخبره بذلك .. وهكذا كانت النتيجة اذن لم اكن مخطئة حينما قلت لك اننا قد هرمنا والا كيف لم ار شيئاً ! ان هذا مايحيرني. ثم اخذت تضحك مرة اخرى ، وبسرعة ادارت رأسها بعيداً .. فقال بازاروف وهو يضحك :

ان الجيل الجديد اصبح خبيثاً بصورة مخيفة . وبعد صمت قصير قال : — استودعك الله .. وارجو ان توصلي الامور الى نهايتها السعيدة ، ولن يمنعني البعد ان أسر لسروركم .. فالتفتت اليه بسرعة وقالت :

— ارجو ان لا ترحل .. لكن لماذا لا تبقى ؟ انه في الحقيقة حديث طريف ذلك الذي داربيننا .. يخيل للانسان انه يسير على حافة هاوية .. فيشعر بالخوف اولا . لكنه يستجمع شجاعته كلما امتد به السير . ارجو ان لا ترحل !

— اشكرك على اقتراحك هذا .. وعلى الاطراء الذي لا استحقه لكنني اظن انني قد تماديت في البقاء مدة طويلة في مكان لا يرتاح الي ، كالسمك الطائر قد يبتعد محلقاً في الهواء لكنه سرعان ما يرجع الى الماء .. فاسمحي لي ان اعود الى المكان الذي نشأت فيه . فنظرت اليه وهو شاحب اللون ينتفض من الالم، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مريرة .. فشعرت بالعطف نحوه بعد ان رأت حبه العنيف فمدت اليه يديها بحنان .. ففهم ما دار بخلدها فتراجع خطوة الي الوراء . وقال :

— كلا .. انني رجل فقير بائس ، ولم اعتد على الاحسان من الناس استودعك الله واتمنى لك حظاً سعيداً .

— انا واثقة اننا لن نرى بعضنا بعد الآن . فاجابها قائلاً :

— من يدري ماذا سيحدث .. ثم انحنى اليها ومضى .

الخاتمة

عاد بازاروف الى بيت والديه الهرمين . في حفلة عرس مزدوجة يتزوج اركادي بكاتيا ووالده بفنتجكا .. يشرح بازاروف جثة فلاح مات بمرض التيفوس فيجرح اصبعه ويصاب بالمرض ثم يموت وآنا بجانب سريره . وتنتهي القصة التي تعج صراعاً بين القديم والحديث في روسيا بمرأى زوجين هرمين مهدمين ، يصليان على قبر ابنهما الوحيد .

بغداد — ماهرة النقشبندي

اديب اسحق فتى الانبعاث الشامل في الادب العربي

من سلسلة الامالي الادبية

بقلم نسيم نصر

مدير الدروس العربية في كلية الشويفات

مستعرب دمشقي المولد بيروتي النشأة ذاعت بواكير شعره ودانت له اعواد المنابر وهو أمرد يلهو اقرانه على ملاعب الصبا بينا هو يكدح في مصاعب الارتزاق تعاوناً واباه الفقير .

نقدمه في عمره القصير اديباً لبنانياً ادّى ، في خدمة العربية رسالة حافلة بالامانة والجرأة والتنوع يقصّر عن مثلها شيوخ الادب الموهوبون ، ونأخذ في الكلام عليه ، معيدين الى الاذهان ،صدى حنينه الى بيروت مبحراً اليها مريضاً من باريس سنة ١٨٨٠ قال :

غبنا وكانت اليك أوبتنا … يا وطناً لم يغب عن الفكر
ما برحت نفسنا على وله … تغالب الشوق فيك بالصبر
يحمدها اذ تكاد تُحمده … حتى بدت منه علّة الصدر
فاحتملنا اليك جاريةٌ … كأنها بالذي بنا تدري
يكاد ماء العباب يُغرقها … وقلبها مثلنا على جمر

يا لهذا الجو المغواء ! ويا لهذه التربة التي كأنما هي ابرة الفكر المغناطيسية تجذب اليها ابداً ابناءها النازحين، يغيبون عنها مهاجرين طامحين ولا تغيب عن مخايلهم فيعودون اليها على جوانح الحنين او تعيدهم اليها رفاتاً عودة الفاتحين!

هذا اديب بيروت وحبيبها شاعت فيه الحياة مبكرة تستندي كرمة نفسه فأينعت موسمها واورفت ظلها فسعت اليها ريح الخريف مسرعة فاجتثّت اصولها ومزّقت غصونها وافانينها ولكنها لم تتمكن من الوصول الى قوارير اطيابها ولا من العبث بادنان عصيرها المسكر.

اديب بيروت اديب منبر واجتماع وصحافة وشعر وموطّىء مسرحي من الرهط الاول المؤذن بطلوع فجر التمثيل على هذا الشاطىء الذي كان دهراً طويلاً مسرحاً لحضارات الفكر العريق. هذا الشاطىء الذي قال اديب الشاعر في طيّب اريج جباله :

واغتنم نشق نسمات السحر … قبل ان تُغنى بأنفاس البشر

وفي ماتع جماله الطبيعي :

والافق يبسم والطيور صوادح … والنهر يرقص والغصون نصفّق

وفي بعض حسانه مجارياً موشحي الغزل في بلاد الاندلس :

بابي ظبياً علينا شفقا … معرباً عن مبسم كالشفق
واني نحوي فاما رمقا … لم يدع للصبّ غير الرمق
ذا جبين كهلال أشرقا … فهدى بالنور أهل المشرق
ولحاظ كنبال حيثا … رشقت كانت نذير التعس
وخدود بعد سقياها الدما … غرست بالورد اجمى مغرس

ولكن الشاعر الفتى الغزل على طريقة اليافعين المدلّهين كان ابيّ الخلق معجباً بأنفته التي تذكر بأنفة ابي فراس الحمداني يقول في موقف من مواقف نبل النفس :

وأرخص دمعي للضعيف اذا شكا … ودمعي لنفسي في النوازل غالي
علوت بذمّ السافلين كما بدا … بمظهر طمن الناقصين كمالي

ولما سجن في خلال الثورة العرابية في بعض سجون الاسكندرية قال بلسان الاحرار آنئذ :

لئن حبست بلا ذنب ولا حرج … فما يراعي الى غير الهدى انطلقا
ولي فؤاد امين ان صفا ووفى … ولي لسان بمحض الحق قد نطقا
ما للمؤذن لم يسجن بارضكم … ان كان يُسجن فيها كلُّ من صدقا

هذه اشارات الى بعض شعره الكثير بالنسبة الى عمره مررنا بها مروراً سريعاً لنحدّث عن نثره المنوّع بين تقريري اجتماعي وخطابي وترسّلي المتّصف في سائر انواعه بالأسر المضريّ القديم والمتراقص في سجع ينساق مطواعاً لقلم لبق كان منذ ردح من الزمن استاذاً في المنشئين وقائداً في المفكرين .

وفي مصر اتسعت نفس الفتى اديب لمجامع الفلسفة الادبية

والمنطق والسياسة فاتصل بجمال الدين الافغاني واصدر جريدة مصر فكانت صبحاً من الانشاء ودعوة لانقلاب كبير اقدم على اصدارها وليس في يده غير عشرين فرنكاً، واتبعها بمجلة اسبوعية.

وضاقت سياسة تلك الايام بنفثات الصحافي الجريء الحرّ فحجبتها فيمّم باريس، حيث صفا له الجو، فاصدر جريدة « مصر القاهرة » يحشد في صفحاتها درره الغالية، وقد استوى على عرش النضوج المبكر. ولكن افراطه في اجهاد نفسه وارهاق جسده اضطراه الى ترك باريس والعودة الى مصر. ولم تطل اقامته فيها لا كاتباً في مجلس النواب ولا مستصحاً بهواء اسوان فيها، فعاد الى لبنانه الحبيب عودة الاسد، فغيّبه القبر وهو في التاسعة والعشرين من العمر.

وفي هذه المرحلة من حياة لبنان اليوم، يفسح التراب، على مدفن الاديب، في حدث بيروت، ليطلع هذه الليلة في مثل قوله:

« ونحن ذوو أبدان شهدت بقوتها حوادث الايام، واهل صبر دلّ عليه ثباتنا في المتاعب، وارباب إقدام اقرّ به الاعداء، وحلفاء قناعة اثبتها الجود والفقر. كنا اهل السطوة غير معارضين وارباب الثروة غير منافسين تزين بضائعنا الامصار وتعمر صنائعنا الاقطار وتنير معارفنا الافكار.

فما لتلك البلاد التي وسعت الوف الالوف تضيق عن المئين؟ وكيف صارت قوّة اهلها ضعفاً، ومسخ مجدهم ذلة وخسفاً؟

هل انقلبت الارض، ام غضبت السماء، ام فسدت القلوب، ام عميت الابصار، ام هذه سنة الزمان في ابنائه؟

كلا! ولا عتب على الزمان. فهو النهار يضيء شمسه، والليل يطلع بدره، والربيع يزين الارض بازهاره، والشتاء يروي المزارع بامطاره. ولكن هي البصائر غشيها وهم الكمال في العادات، ودعوى العصمة في التقليد، فاحتجبت عنها حركة الخواطر في بلاد الغرب، فسار الناس ونحن واقفون، وحرّكتهم عوامل الغيرة وضمائرنا مبنية على السكون.

الى ان يقول:

فان قصر العمر عن الوصول الى غاية النعمة، ودرجة الهناء، فلا اقل من ان يموت الشرقي عن سعي يُشكر واثر يذكر:

فمن عاش في ذل فذلك ميّت ومن مات في عزّ فذلك سيّد

وفي مقاله « اماني » من عرض حالنا المغبونة في علاقاتنا بالغرب ما يصلح نداء في آذان احرارنا وشبابنا اليوم كقوله:

لقد آن، والله! للامّة ان تطلب وللدولة ان تجيب. بل آن للغربيين ان ينكفئوا عن الطمع في الإثرة، ويعدلوا عن الحرص عن الامتياز. فقد ابطلت الحجة التي اثبتوا بها لانفسهم ذلك الحق الى ان قال:

بصرت بالحالة العليا فلم ارها تُنال الا على جسر من التعب

وفي «بيانه» عند انتقاله من القاهرة الى الاسكندرية بجريدته « مصر » تفصيل لنهجه الصحفي ركّزه على ثلاث نقاط هي من القيم التوجيهية عامة والصحفية خاصة بمكان رفيع. قال: « اولا، اصرف العناية الى تهذيب العبارة وتقريب الاشارة لتقرير المعنى في الافهام من اقرب واعذب وجوهر الكلام متجنباً ما كان من الكلام غريباً وحشياً، او مبتذلا سوقياً. فان التهافت على الغريب عجزٌ وفساد.. والتنازل الى الفاظ العامة يقضي باماتة اللغة وإضاعة محاسنها، وان في لغة قوم لدليلًا على حالهم.

ثانياً، أسير في السياسة سيرة محبّ لوطنه، لا تأخذه فيه لومة لائم وناقل عدل لا يتجاوز به الميل جانب الإنصاف.. واذا أرضيَ لم يقل غير الصدق واذا سخط لم يتجاوز جانب الحق..»

ثالثاً. اقضي واجبات الجرائد بنشر المقالات العلمية والادبية تنبيهاً للخواطر وتدميثاً للاخلاق..»

نعبر مسرعين بمثل مقاله « المقيم المقعد » يتصدّى فيه لتمثيل الشرقيين، ينصبون احياناً من الاشخاص اصناماً يحرقون امامها البخور ويضحكون في سرهم منها ومن انفسهم ايضاً، تمثيلًا يمتّ الى اسلوب المقامات بضلع كبير، يدافع فيه هذا الفتى اقطاب المنشئين في الفصحى، بعبارة يبلغ فيها غاية من الاعجازين: متانة اللغة وتدفّق الطبع.

ثم نخلص الى عرض يسده المنتجة، مساهمة مع صديقه سليم النقاش، اخي مارون النقاش، واضع حجر الاساس في المسرح العربي الحديث، تلك المساهمة التي نقلت الى لسان العرب روايتي: « اندروماك » و« ابنة رولاند » ووضعت اقتباساً رواية « الباريسية الحسناء » فجاءت جميعها في خير بيان ترضى عنه الفصحى ويتناوله الجمهور.

وخلاصة القول ان اديب اسحق كوكب صبحيّ أُطلق في سماء الفصحى شعاعاً خالداً على ظلمات الانحطاط فاهتدى بنوره كثير من حملة الاقلام الى فجر الانشاء الحيّ والفكر الثائر على كره من عمره القصير المشوب بالغصص الكثيرة.

نسيم نصر

مأساة المركيز دي سنك مارس

☆☆☆

لقد مرّت ثلاثة قرون على خاتمة مأساة «سنك مارس»* وكان احد المقربين الى الملك لويس الثالث عشر، وقصة محاولة كلفت صاحبها حياته، فمات في سبيل طموحه وآماله، وما عتم خصمه الكردينال ريشيليو ان توفي على اثره، ولم يعمر بعده طويلاً. ولا زالت خرائب قصر «سنك مارس» في التورين، الى يومنا هذا، تشهد بعظمة صاحبه العتيدة، وسقوطه المريع: ولا زالت ابراجه تناطح الجوزاء، ناطقة بعظمة صاحبها وتوثب تلك النفس التي قضت في سبيل حياة اعظم، وفي سبيل فرض الذات. وهذه الخرائب لا زالت تتحدث عن مأساة «سنك مارس» التي تعدّ من ازخر مآسي التاريخ الفرنسي.

نحن في عام ١٦٣٨، في عهد لويس الثالث عشر، والكردينال دى ريشيليو يقبض بيد من حديد على زمام الاحكام في فرنسا، فهو طاغية عنيد، يحكم باسم الملك، ولا يتورع في سبيل غاياته السياسية عن اي عمل، ولكنه رغم هذا، مهاب ومحترم، لاعماله العظيمة وذكائه النادر وحنكته في تصريف امور الدولة... انه تسلم مملكة متهالكة منقسمة على نفسها، وخلّفها موحدة مرهوبة الجانب، شامخة الامجاد. ولكنه اضطر في سبيل هذا كله، الى محاربة النبلاء، ومعاملتهم بطريقة تخلو من الرحمة والانسانية والنبل. وكثيراً ما اكتشف مؤامرات تحاك ضده في الخفاء، فأحبطها وشتت قوادها، وبطش بمدبريها.

واثمرت سياسة الحزم والشدة ثمارها، رغم العديد من مضارها، فانتعشت حركة العمران والتجارة الخارجية؛ فهدأت الضمائر والنفوس، وانصرف الناس الى الفنون الجميلة والآداب، فكان المجمع الفرنسي...

وظل ريشيليو مكروهاً من الناس، رغم اصلاحاته المتعددة الحيوية. ولم يتمكن من بث المحبة في القلوب، والحماسة في الارواح، وظل الشعب ناقماً عليه، فاذا حدث وظهر في مناسبة من المناسبات، ارتفعت الهمهمات وعبارات التهديد من اوساط الجمهور الحاقد الغضوب.

ولكن الملك كان يعلم مدى الخدمات التي يؤديها له وزيره الاول. فأطلق يده في امور الدولة. واعطاه صلاحيات واسعة، وليس ادلّ على ذلك من هذه الرسالة من الملك الى الكردينال:

«لحضرة ابن عمنا. انني اقدر كل الاسباب التي تدعوكم الى الراحة، وانا اتمناها لكم اكثر مما تتمنونها لنفسكم، مع الصحة الجيدة، لا سيما اذا خصصتم اوقاتكم الثمينة لسياسة امور دولتي.

فكل شيء اصبح على ما يرام منذ تسلمكم زمامها وانني امحضكم غالي ثقتي، مصرحاً انني لم اجد الى الآن من ارضى رغبتي في سياسة الامور مثلكم وهذا ما يجعلني اتمنى عليكم، بل ارجوكم، الا تنسحبوا من الحكم، لا والا، ساءت اموري...

«ان اخي حاقد عليكم، يؤازره بعض رجال البلاط،

---

* نحاول ان ننقل لقرائنا الذين لم يطّلعوا على قصة «سنك مارس» لالفريد دى فيني ما كتبه احد أعضاء المجمع الفرنسي، هنري روبير، عن هذه المأساة

ولكنني سأحميكم من اي كان ، ولن اتخلى عنكم ابداً ».

وكأن الملك تنبأ ، في هذه الرسالة ، بقصة المؤامرة التي نروي وقائعها .

كان المريشال « سنك مارس » ، والد هنري بطل مأساتنا ، من اشهر رجال الحرب والسياسة في فرنسا ، خدم الملك والوطن خدمات كبيرة ومات في اوج عزه وسلطانه .

وورث عنه ، ابنه هنري ديفيا ، المركيز « دي سنك مارس» كل الصفات النبيلة المحببة . فكان ، في شبابه ، مرحاً ، حسن الحديث ، صبيحاً ، انيقاً ، يمتاز عن عامة الشبان النبلاء بعظمة نفسية روحية غريبة ، مقرونة بقوة جسدية تظهر اكثر ما تظهر اثناء التمارين والمبارزات التي كان المركيز يخوضها .

لاحظ ريشيليو ، وهو السياسي الماهر ، هذا الشاب ، فأضمر له العطف ، وشيئاً اكثر من العطف . اضمر له الاعجاب بمواهبه ، واراد ان يدفعه الى الامام ، مستغلاً مواهبه في سبيل غاياته هو .

عين الكردينال الشاب ، ولما يتجاوز السادسة عشرة من العمر ، ضابطاً في الحرس الملكي ، ثم التشريفات الملكية ، وسرعان ما لاحظ الملك هذا الشاب الجميل الذكي الانيق ، وعلم انه ابن الماريشال المتوفي ، فقربه اليه لشهرة والده ، وخدماته الجلى ، واحاديث الكردينال الدائمة عنه .

ثم تحولت العلاقة بين الملك والمركيز الشاب الى الفة ، فولع فحبة ، وفي نهاية عام ، ارتفعت الحواجز بينهما وصار الملك يصرح للشاب بدخيلة نفسه ، واصبح مشغوفاً به شغفاً غريباً ، فلم يعد بامكانه ان يستغني عنه .

وهذا ما كان يرمي اليه الكردينال ريشيليو حين اتى بالمركيز الشاب الى البلاط .

ولم تكن الصلات ، في الحقيقة ، وثيقة بين الملك ، ووزيره الاول ، انه خضع لتأثيره بعد ان آمن بآرائه الصائبة وسياسته الحكيمة ، ولكنه ظل يثور في دخيلته ، على هذا الطاغية المتعجرف ، الذي يشاركه في الحكم والسلطان ، بل يكاد يتفرد بهما دونه .

واخذ لويس الثالث عشر يتعزى برحلات الصيد ، ثم اتاحت له الظروف — او هكذا تصور — هذا الشاب الذكي الاريب ، فراح يصارحه بمكنون عواطفه وعميق رغباته .

وعلم ريشيليو بحالة الملك النفسية هذه ، لانه كان يعلم كل شيء ، فخاف على نفسه من الملك وصرح بهذه المناسبة لنجيّه « الاب جوزيف » :

« ان السيطرة على الملك تكلفني جهوداً اشد من السيطرة على المملكة » وظن انه يستطيع ان يقف على حركات الملك وخبايا نفسه ، بواسطة صنيعته الشاب ، وكان الكردينال يثق باخلاصه ، ثقة تامة . .

وتلقى الملك ، كما رأينا ، الشاب بالعطف والمساعدة ، وقربه ، ليتقي اشباح الشيخوخة التي بدأت تحيق به في مسائه المضطرب الحزين .

جعل الملك يصطحب الشاب في غدواته وروحاته ، ولا يسمح له بقضاء ساعة واحدة بعيداً عنه :

ولم تمر هذه الصداقة الشديدة دون احداث ومنغصات ، فالملك متحكم ثائر . يريد ان ينفس عن صدره ظلم وزيره ، بظلم صديقه الشاب ، وهذا رقيق المشاعر طاهر النفس ، فيه اندفاع الشباب وثورة الآمال الكبار . . ومما يدلنا على مبلغ حب الملك المركيز الشاب انه عينه بعد مرور عام من وجوده في القصر كبير فرسان الملك ، وهو اكبر منصب في البلاط الملكي .

المركيز دي سنك مارس



وكأن هذا النجاح قد اسكر الشاب بخمرته ، وللنجاح خمرة اشد فعلاً من مرارة اليأس ، ففقد حاسة التفكير الصحيح ، وركبه الغرور . وكتبت الاميرة « آن دي غونزاغ » تصف عظمة سنك مارس في تلك الايام « كل المظاهر حول المركيز كانت تغري به وتوغر صدور الحساد من خصومه ، فموكبه حين يسير الى مقابلة الملك ، لا يختلف عن موكب الملك نفسه او الكردينال ، اذ كانت الفرسان تصطف بالمئات ، عند مروره ، وتتبعه الى السدة



الاميرة ماري دي غونزاغ

الملكية. وهو يمتاز عن النبلاء. وروّاد البلاط من السادة بالاناقة، والترف والجمال، فالنساء الجميلات يترامين على اقدامه، والوزراء يتسابقون الى خدمته، وهو لم يبلغ العشرين بعد والجميع ينادونه «العظيم» مختصرين اسمه وهو «عظيم فرسان الملك».

●

ولكن الملك والكردينال ظلا يعتبران سنك مارس طفلاً، ويعاملانه على اساس هذا الاعتبار.

والتقى المركيز، في البلاط، بالاميرة «ماري دي غونزاغ» فأحبها حباً شديداً مفاجئاً.

والاميرة ماري سمراء، ذات جمال روماني، ومشية نبيلة فيها عظمة وفيها روعة، ولم تكن هذه الاميرة، كما صورها الفرد دي فيني، شاعرة القلوب محمومة الوجدان، عاطفية، بل متعجرفة ماكرة تحاول ان تبذل سحرها وحسنها في سبيل مطامحها الكبيرة.

حلمت الاميرة ماري في بادي الامر بالزواج من غاستون دورليان، وهو اخو لويس الثالث عشر، ولكن هذا الامير فضل في اللحظة الاخيرة «مارغريت دي لورين» التي تفوق ماري ثروة ان لم تفقها جمالا.

حقدت الاميرة الجميلة ماري على الدوق الغادر، ولما اخذ «سنك مارس» في هذه الاثناء يتودد اليها، لم تجد مانعاً من مسايرته، فتظاهرت بحبه عسى ان يحقق لها بعض ما تطمح اليه نفسها من العز والسؤدد، واوحت اليه، برقة ولطف، انها لن تتزوجه ما لم ينل لقب «دوق».

وصارح العاشق الولهان، ريشيليو، بمطامحه، ومطالبه الجديدة فلم يوافقه عليها بل زجره قائلاً:

— عليك الا تنسى ايها الشاب، انك لست غير نبيل توصل الى ما هو فيه من الرتبة بفضل مساعدتي وعطفي، فكيف تسول لك نفسك الحديث عن الزواج بالاميرة «ماري»؟ اما اذا كانت هي توافقك على هذا الزواج، فانا لا اشك بانها مجنونة، مثلك!!

جرح هذا الرد الشديد «سنك مارس» في صميم كبريائه. فخرج دون ان ينبس ببنت شفة.

واوجدت الظروف دافعاً آخر لحقد المركيز، فحدث يوماً، اثناء اجتماع الملك بوزرائه، ان قال الملك لريشيليو: اريد ان يكون هذا الصديق (واشار الى «سنك مارس») حاضراً اثناء اجتماع الوزراء، ليظل على بينة من امور البلاد.

فلم يبد على ريشيليو انه سمع هذه الاشارة الملكية، وعند انتهاء الجلسة، طلب من الملك استبعاد «عظيم فرسانه» من اجتماعات الوزراء المقبلة، فقبل الملك هذا الطلب، ولم يحضر المركيز بعدها اجتماعاً من تلك الاجتماعات.

وايقن سنك مارس بان الكردينال هو الذي اوحى الى الملك بهذه الفكرة، فاسرها في نفسه، واضمر الانتقام، والقضاء المبرم على خصمه اللدود. وحدث ان اهان الكردينال احد النبلاء، فونتراي، وكان معروفاً بنفوذه ودهائه في البلاط، فاتخذ هذا النبيل من «سنك مارس» مستودعاً لاسراره. وهكذا اجتمعت المركيز دوافع حبه للاميرة ماري، والطموح، والكبرياء الجريحة، والدسائس، فحاك مع اصدقائه النبلاء، خيوط مؤامرة جهنمية، غير مبالين بما يمكن ان يلحق فرنسا من جرائها، فهم يريدون ان يوقعوا بريشيليو عملاً بصرخة شمشون:

«علي وعلى اعدائي يا رب!»

●

وكانت الحرب على اشدها، في تلك الآونة، بين فرنسا واسبانيا، وحاول «سنك مارس»، ان يهيء، في ذهن الملك الفرنسي، افكرة الصلح مع اسبانيا، بعكس الكردينال الذي

فرانسوا ارجوست دي تو



كانت سياسته تتلخص في محاربة اسبانيا حتى النهاية .

ولم يستجب الملك لاقتراحات صديقه ، فتحول هذا الى رهط من النبلاء ، وفي مقدمتهم شقيق الملك ، واقترح عليهم اغتيال الكردينال ، وتنصيب غستون دورليان عوضاً عن اخيه لويس الثالث عشر ، وتوقيع معاهدة صلح مع اسبانيا .

وكتب سنك مارس ، بخط يده ، نص المعاهدة ؛ وتعهد فيها الدوق دي « بوايون » احد المتآمرين ، بالسماح للجيوش الاسبانية باحتلال « سيدان » على ان تعين جيوش اسبانيا ، الحركة ضد الملك . اما غستون دورليان فتعهد بقيادة الجيوش الفرنسية والاسبانية موحدة القيادة ، وتعهد ملك اسبانيا بتقديم اثني عشر الف رجل ، وخمسة آلاف جواد ، ودفع مبلغ اربعمائة جنيه ذهبي نفقات للثورة .

وقر رأي المتآمرين على ان يخلف غستون دورليان ، اخاه لويس ، وسنك خصمه ريشيليو . وهكذا ينال الاسبان السلم وقد طالما طمحوا اليه .

وسلمت المعاهدة الى المركيز دي فونتراي . بعد ان اخذ على عاتقه توقيعها من رئيس وزراء اسبانية الدوق « اوليفارس » . وفي هذه الاثناء شفي لويس الثالث عشر من مرض ألم به ، وسار الى ساحة الحرب حيث كانت المعارك مشتدة في نواحي « برينيان » .

وسار الى ساحة الحرب بصولجانه وتاجه وابهة ملكه ، املاً ان تبتعث هذه المظاهر الملكية بعض ما فقد من الهيبة في قلوب الشعب ، وخاصة جيوش المتآمرين ؛ بعد ان لغط الناس ببعض الاسرار والاشاعات . . وتوقف الملك بصحبة ريشيليو ؛ في فونتنبلو ، ثم توجه الى ليون ، والتقى « سنك مارس » بريشيليو في ليون ، ولم ينفذ المركيز ما تعهد به للمتآمرين من اغتيال الكردينال . ومع ذلك فقد كان سنك مارس يحمل في منطقته خنجراً رهيفاً كثيراً استله امام اصدقائه قائلاً : « بهذا سأحقق آمالي واخلص فرنسا » .

ومن الطبيعي ان تصل بعض هذه التصريحات الدموية الى الكردينال ، مع ما انتقل اليه من اخبار المؤامرة ، فكان يبتسم ابتسامة هادئة معنوية . .

في هذا الوقت تلقى « سنك مارس » نصائح كثيرة . تدعوه الى التروي والحذر والهدوء ، ومنها نصيحة صديقه المخلص « فرانسوا دي تو » وهو رفيق صباه ، وقد نشآ معاً ، وسترى من سياق المأساة انه سيموت في سبيله ، رغم براءته ونبل نفسه .

وكان من الطبيعي ان لا يأبه « سنك مارس » لهذه النصائح ، فاستخف بها ، ولم يولها كبير اهتمام .

فونتراي الآن يجتاز جبال البيرينه ، حاملاً المعاهدة الخطرة الثمينة التي تسلمها ، متخفياً بثوب راهب كبوشي ، وعلم بهريشيليو فأرسل رجاله يطاردونه وسط العواصف الهوج والثلوج الهاطلة ، فغذ فونتراي في فراره ، ضاغطاً على المعاهدة ، في بطانة معطفه ، متخطياً الحواجز والحدود . . ووصل الى مدريد ، وقابل الدوق « اوليفارس » ولم يكتم رجل الدولة فرط سروره بالمعاهدة ؛ ولكنه احتج على بعض ما جاء في بنودها وامتنع عن التوقيع فصاح فونتراي في النهاية :

انا لا اعجب من فشلكم في السياسة والحرب ، لانكم في الحقيقة ، تهتمون بالاشياء التافهة ، في حين تهدد الجيوش الفرنسية حدودكم . وبعد الجدل والمناقشة وقع السياسي المعاهدة ، وعاد فونتراي بها الى « كاركاسون » حيث سلمها الى « سنك مارس » وصديقه المخلص « دي تو » وتوجه الثلاثة الى « برينيان » حيث الجيوش الملكية .

الانظار كلها متجهة الى خصم الكردينال . فالثعلب العجوز مريض ، والشاب ينعم برضا الملك ومحبة الفرسان ، ومؤازرة النبلاء .

مشهد اعدام سنك مارس ودي تو



وسنك مارس يتحدى ريشيليو علناً ، وعلى مسمع من رجاله ، في جميع المناسبات ، وانقسم الجيش ، في الرأي ، من مناصر للكردينال ومخاصم له .

واتصلت بالملك اخبار « سنك مارس » وجملة من تصريحاته الملتهبة الساخرة ، فمنعه من الدخول عليه ، مسايرة للكردينال ، فحاول سنك مارس مراراً ان يحظى برؤية مولاه ، ونجح اخيراً ، وتلقى

عند زيارته للملك ، وابلًا من الاهانات الشديدة.

جعل الكردينال يراقب خصمه ليتخلص منه عند اول بادرة. ولولا الجيش، الذي ظل على ولائه للمركيز، لما لبث هذا في المقاومة طويلًا.

ووردت على الكردينال رسالة من احد جواسيسه في مدريد، يخبره فيها ان احد الفرنسيين (وهو مجهول لديه) جاء الى العاصمة الاسبانية ، وخابر السياسيين فيها بشأن معاهدة سرية

احد الفرنسيين ؟ ان جواسيسه جميعاً يعرفون « سنك مارس » « ودى تو » والدوق دى « بوايون » فمن يكون الخائن الدساس اذن؟ فليس لدى الكردينال اي اثبات ضد خصومه السياسيين.

ويظهر ان اخباراً واضحة معينة اتصلت بالكردينال، حول المؤامرة ، اذ كتبت « ماري دى غونزاغ » الى حبيبها تقول : « انكشفت مؤامرتكم في باريس . . واصبحت واضحة كالشمس ».

وحاول اصدقاء « سنك مارس » ان يقنعوه بالهرب ، ولكنه اصرَّ على البقاء في فرنسا ، فانتهره فونتراي قائلًا :

« ان لك من ارتفاع قامتك ما يحفظ لك طولها ، بعد قطع رأسك ، اما انا فقصير القامة ، واريد ان أبقي على رأسي ليظل شكلي مقبولا ».

وفر فونتراي الى بريطانيا ، في زيه الكبوشي المعهود.

وانكشف امر المعاهدة ، فقد حمل « شافيني » نسخة منها الى الملك ، ارسلها اليه الكردينال ، ولم يعرف الى الآن ، كيف توصل اليها هذا المارد الداهية . وفوجيء الملك ، ودهش عند قراءة هذه الوثيقة التي تثبت خيانة صفيه وخليله « سنك مارس » هذا الرجل الذي انعم عليه بالجاه والثروة والمجد ، والذي باع بلاده في سبيل الانتقام الرخيص .

ودعا الملك اليه « سنك مارس » وأمر باعتقاله وخلافاً لما يزعم الفرد دى فيني ، في كتابه عن « سنك مارس » فان بطل مأساتنا حاول الفرار ، حين امر الملك باعتقاله ، ولكن الحرس القوا القبض عليه في اليوم التالي لفراره .

واوقف صديقه دى تو ، دونما سبب سوى صداقته للمغامر العاشق ، حاول « سنك مارس » ان ينقذ ما بقي من كرامته ، فالتزم مظهر الكبرياء والعزة اثناء المحاكمة والاستنطاق، اما شقيق الملك فكان مضحكاً في تصرفاته ، اذ ركع على قدمي اخيه ، طالباً الصفح والغفران ، معترفاً بكل شيء . . . فقال له لويس : انهض يا اخي . انا اعلم انك ما احببتني في حياتك ، ولن يتيسر لك ان تحبني ابداً .

لم يكن لدى ريشيليو سوى نسخة عن المعاهدة ، قد تكون صحيحة او مزورة ، فلم يكن باستطاعته ، والحالة هذه ، ان يستصدر من اي قاض في المملكة حكماً على خصومه ، وخصوم الوطن ، فاستكتب « غستون دورليان » اعترافاً كاملًا يستند اليه في المحاكمة ، فكتب هذا الامير الرعديد وثيقة يحمر لها وجه التاريخ خجلًا .

سجن سنك مارس وصديقه البريء « دى تو » في تارسكون، وتولى الكردينال استجوابهما بنفسه . وعين « ليون » مكاناً للمحاكمة بعد ان اقتنع بجريمة «سنك مارس» واقنع الملك والقضاة. اما « دى تو » فاتهم بكتمان خبر المؤامرة رغم علمه بها .

وفي « ليون » حاول القضاة، اثناء المحاكمة ، انتزاع الاعتراف من احد المتهمين ولكن عبثاً، ولجأ القضاء الى حيلة معروفة ففصلوا الشابين واوهموا « سنك مارس » بان صديقه « دى تو » اعترف لهم بكل شيء، فضعف امام حيلة القضاء ، واسئلتهم المتكررة المملة المحرجة . . فخانته اعصابه ، واعترف .

وحكم على المتهمين بالاعدام ، فصعدا الى المقصلة ، في ساحة من ساحات ليون وسط الجمهور المجتمع من انحاء المدينة ، ونفذ فيهما الحكم بين الدموع واللعنات . .

وقال ريشيليو وهو على فراش الموت « الله وحده يعلم المذنب من البريء ، ولكن اعداء الوطن هم دائماً اعدائي ».

شدي الوشاح

●

انزاح طرف وشاحها الوردي فتململ الطفلان في المهد
يتجاذبان على ارتجافهما قصص اللقاء ، وخفقة الوجد
يتراقصان كأن ظلهما انداء صبح في فم الورد
كل يحاول ان يطير بأجنحة العبير ، الى رؤى وعد
حتى يخامره الحياء سنى فيرف متكئاً على زندي
طيفان في ثغريهما ألق كالنجم ، يا للنجم !. ما يبدي ؟
شدي الوشاح على الربيع،فقد ملك الهوى محاوله . شدي
الزهر ما لثم الندى فمه ينشق بارقة على النهد
ضمي البراعم في غلالتها شفة الصبا لهفى الى الورد
الموجتان على اضطرابهما رقص الشعاع معربد المد
ابدا يجن لومضه نظري فهوى الفراشة فتكة الوقد
لكنني بي من هواه منى ولهى تغار عليه من ودي
انا ان يخاصر طيفه حدقي اخشى على الاحداق من سهدي
اخشى على الطفلين صحوهما هذين يا حسناء ما افدي

بغداد — طه العبيدي

في ضمير الغيب

مهداة الى روح « جينه »

●

لما انطويت على نفسي ظفرت بها صمتاً اعانقه جذلان مكتئبا .
كأنما نشوة الالهام تفعمني وجداً فأفعمها من جذوتي طربا .
اني سعيت اليها في مجاهدة ورحت اكشفها أسيان منتحبا
وجدتها في ضمير الغيب سابحة والنور من افقها ينهل منسكبا
البؤس ألهمني لما انسجمت به والشك اظهر لي ما كان محتجبا !.

«ذاتيتي» انبثقت من«ذات»خالقها فأسرع العقل كي يستكشف السببا
فغامت الروح واربدت ملامحها ووجهها من تهاويل الاسى شحبا
عقلي إله وروحي اين قيمتها اراك يا عقل بالاوهام مصطخبا
شوهت بالمنطق المزعوم روعتها وما تركت لعين«الحدس» مرتقبا.
معراج وحي اذا ما رحت تصعده صاحت بك الارض لا،هيهات ان تعبا*

فتنطفي ومضة التجريد مرغمة وتنثني للهيولى يائساً ، تعبا !..

اني اعود ولي في خيبتي امل على صدى عزلة تستنطق الشهبا
ينتابني ارق النجوى بسورته والقلب يوشك من دنياه ان يثبا !.

تظل فلسفتي حبلى بمشكلة احس وقع خطاها الآن قد قربا
دعني فتلك الرؤى ما زلت ارقبها الا تراني فوق الافق مغتربا
اصغي وذاك الدجى المسحور اسأله والفكر منطلق يستشرف القببا
وارتمي في خضم الذات ملتمساً حضن الالوهية العذراء ، مُنقلبا .

ويعبر الله في ذاتي فاتبعه حيران ، مصطرع الاشواق ، مضطربا
يمضي فأمضي وآفاقي ترف له والوجد يسطع بالاشراق ملتهبا
ونلتقي في ذرى الايمان يغمرني وحياً فأغمره في سكرتي حببا !

هي الطمأنية الكبرى اجاهد كي اسمو اليها واسلو الضعف والوصبا
حتى اذا امتزجت روحي مباشرة بها وانهلت من احواضها الاربا
حسبتني الله يزهو في قداسته وقد نأى عن يقيني الشك واحتجبا .

مصطفى محمود

* وعب يعب

قصيدة

●

خير شعري قصيدة	هي في النفس باقيه
طي ذاتي نفثتها	ثم او صدت ذاتيه !
هي في القلب رعشة	يجهل العقل ماهيه !!
كلما جن ومضها	كاللظى .. في فؤاديه
عدت لـلامس ذاكراً	صوراً من غراميه
انتشي .. مثل شارب	من شرايين داليه !!
اي لحن يموت بي	من اغاني شبابيه
وفراغ احسه	، في ضلوعي ، وهاويه
ان انا بحت للسوى	، في غنائي، بما بيه !
ورأى الناس بعدها	شعلة الذات خابيه
قد مضى البوح بالذي	كان من نورها ليه
انطوي فوق وهجه	ناعماً بانطوائيه !

فؤاد الحشو

الامل الخالد!

الى وردة بيضاء في مكان ما من الوجود!

حين يمضي الربيع لا تقفي كالظل حيرى على رفات الربيع
واتركيه للصيف ينزف دنياه ويمضي بحالمات الدموع
وارقصي عند نعشه وطئي الورد، بقايا مغمورة بالنجيع
وارفعي صدرك الخليع الى الله وثوري على خبيء الضلوع:
ها هنا نشوة الوجود فلم اكتم حبي وليس لي من رجوع!

وانا كالربيع لوحه الصيف فتاه الملال في اوراقه
وهمى الظل يسرح الكسل الابله والعي باهتاً في أحداقه
وارتمى الغصن، يسأل الابد الماء، وذل السؤال في اشداقه
فاعهدي بي انا الخريف تناهي البذل للشح في ربا اشواقه
بذله ليس طوع هذي البقايا ثورة الوهم في مدى اغداقه

لي حلم يا ورد لن يطلع الفجر ومنه في مقلتي غير دمعه
نحن منه على جناحي غمام ساحب ظله الى غير رجعه
انا شوق وليس لي طمع منه، وانت الحنين يحرق ضلعه
ان تدانى الجنحان وانزلقت كاس لكاسي وقلت يجرع جرعه
باعدتنا الرياح فانسكب الشوق فعدنا والجراح ينزف لوعه

وتطول الايام والامل الخالد يمضي بعيدا بعيدا
ابداً نحمل العذاب، عذاب الشوق، والشوق تستحيل جديدا
صبوة لا نريقها انما ندرك انا نذوي رويداً رويدا
وترود الغمام رعشة ريح فيهل الدموع لحناً شرودا
وعلى الارض نسكب الدمعة حرى فتروي الحياة منها الوريدا

هو حلم دعيه يفرغ ما فيه فان الحياة تطوي جراحه
فغداً يرقد الوجود بجنبيه ويلقي المدى عليه وشاحه
فاذاما عبرت بي عند قبري والصباح الندي يسكب راحه
فطئي رمسي المغفى بنعليك ودوسي ترابه واقاحه
حسب قبري ان تبعثي الامل الخالد فيه وان تثيري نواحه

لست تدرين من عبرت ولكن قدر تاه فانطلقت اليا
لست تدرين ان ضلعي تحت القدم المشتهاة ينشر ريا
لست تدرين ان رفة ثوبيك تثير الاسى المجنح فيا
حسب روحي اذا مضت حلما اخضر: ان سوف تعبرين عليا
وستجري الحياة ملء ترابي ويعود الوجود كأساً رويا

حمص **انعام جندي**

لقاء الربيع

الربيع السمح وافى والصباح باسم يستقبل الضيف الكريم
رحبت بالزائر الزاهي الجناح صادحات الطير بالصوت الرخيم
كل ما في الكون يصغي بارتياح وبشوق يرمق الوجه الوسيم

قم بنا للروض قم نصطبح ونغني الحب مع اطياره
فهو يزهو برداء الفرح ويفوح الطيب من ازراره
يا لروض بالضيا متشح جمد النور على نواره

انها دنيا الربيع الساحر ترتدي بُرد الصبا بود الشبابْ
انها دنيا الجمال الباهر توجت هامته قوس السحاب
هي دنيا الحب حلم الشاعر اشرقت فيها الاماني العذاب

ما ارى الشلال الا وترا شده الله الى صدر الغدير
تنشد الطير عليه سورا للهوى في محفل الورد النضير
حبذا العيش ندياً اخضرا وربيعاً دائماً حلو العبير

آه ما احلى الطيور الشادية نغمات الحب في روض الصفاء
آه ما احلى الغيوم الجارية سفناً بيضاء في بحر الفضاء
ليت شعري اين تمضي سارية اتراها تنتحي دنيا الرجاء؟

نحن من دنيا الاماني كالورود وردة تذوي واخرى تزهرُ
ان تمت فالطيب باق والخلود في النوى جل الاله القادر
هكذا الامواج تمضي وتعود ليس فيها اول او آخر

اسمع الامواه يحدوها الامل وهي تجري للمقر الازلي
حملتها الشمس اماً للجبل واعادتها لحضن الجدول
فجرت للبحر تشدو في جذل دون ان تفقه معنى الاجل

فـالى م انت تخشى الاجلا　　افترجو ان تعيش الابدا
عش يوحي القلب وامرح جذلا　　واطلب العيش ربيعاً وندى
ولتكن دنياك دوماً املا　　عبثاً يطري امانيك الردى

وديع ذيب

الدمعة الحمراء

إيه نعمى هـل ترى تدرين اسرار الدموع ؟!
رب دمع قد حوى سفرا من الشعر البديع !
رب دمع لم يكن الا دما قلب مروع !
رب دمع فجرته النار ما بين الضلوع !.

لو شهدت الدمعة الحمراء تذريهـا جفوني ! .
عندما ماتت مُنى قلبي وغارت في السكون !. .
عندما غصت بصدري لوعة الوجـد الحنون
لاعترتك الدهشة السكرى واوصاب الشجون !. .

ايه نعمى ! لا تظني انني ابكي انكسارا !
لا تظـني دمعتي تهمي خنوعاً او صغارا !
ان نفسي تأنـف الذل وتستعلي اقتدارا !
ليس ترضيها حيـاة لم تكن نوراً ونارا !

دمعتي : غضبة حرّ سامه الدهر عذابا !. . .
دمعتي : شوقي الى الامثل لا القى الرغابا ! . .
دمعتي : افلاذ قلب في حنـايا الصدر ذابا !
دمعتي : صرخة يأس من دنى ماجت سرابا !

بولس اسعد الشرتوني

من ذكريات شللي

على ضفاف بحيرة جنيف

يا أماسي حبنا الحالم عودي يا ليـالي
وانشري في سفح « لمبارد » حنيني وابتهالي
امسيات كلما طافت رؤاهن ببالي
عصرت قلبي من الشوق وقلبي غير سال

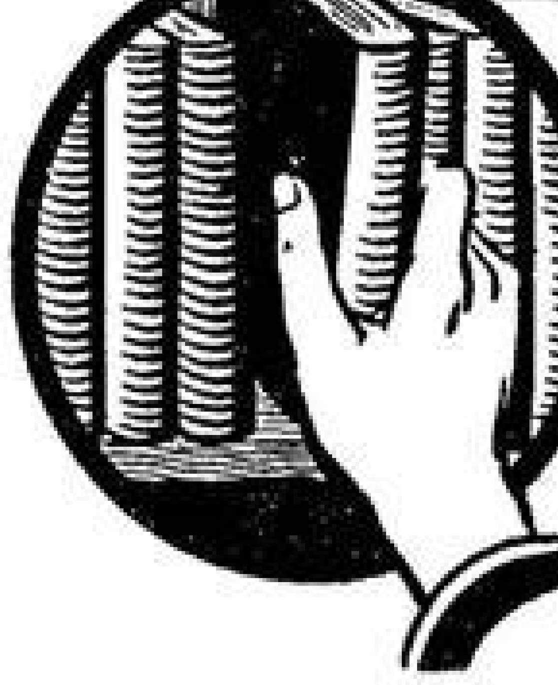
حين سار الزورق المخمور يحدوه التمني
و« جنيف » كخيال طـاف مزهواً بذهن
دغدغت شطآنهـا الريح بشوق وتأن
فتلقته بموج كصـدى العود المرن
وحبيب الروح في الزورق هيمان يغني :
هذه امسية الحب وساعات الجمـال
فتزود لليالي الهجر زاداً من وصالي
فالليالي غادرات آه مـا اقسى الليالي

وشعاع الشفق الاحمر يلقي ذوب تبر
في كمـام الزهر الغافي على شاطىء نهر
ما ترى دمعته البيضـاء كاللؤلؤ تجري
فوق رمل الشاطىء الظامي الى دفقة قطر
وبنا الزورق فوق اليم كالاطياف يسري
وحبيبي فـاتن الطلعة شرقي الدلال
علمت مقلته النـاس افانين القتال
وحبت بسمته الحلوة اصناف الظلال

وطيور الساحل الغربي لاذت بالوكور
جاثمات يتمرغن عـلى بسط الزهور
والسنونو والشحـارير وافراخ الطيور
ملت الروض فهامت بين طيات الاثير
كلما ملت من التحليق عامت في الغدير
والهوى العاصف بالعشاق يسعى للزوال
بين تقبيل وهمس وشكاة وابتهـال
يتهادى الزورق المخمور ما بين الدوالي

أين « ماري » اين ليلات الوصـال الساحر
يوم كنا مثل طيرين بروض عـاطر
ذاك عهـد مر من عمري كحلم عابر
لم تزل تبعث ذكراه الاسي في خاطري
آه لو ترجع ساعـات الهوى للشاعر
آه يا « ماري » رماك الموت عني بانفصال
وتراءى الامس للعين كأطـلال بوال
كيف لا تدمع عند الموت آماق الرجال

بغداد　　**عبد القادر رشيد الناصري**



مكتبة الاديب

خليل مطران - شاعر العصر

لنجيب جمال الدين - ١٦٢ صفحة - مطبعة دمشق

بين يدي الآن ، رسالة في النقد التحليلي ، والدراسة الادبية ، وضعها الاستاذ نجيب جمال الدين ، عن الشاعر خليل مطران ، الذي اطلق عليه ، اسم شاعر العصر . وخليل مطران ، يستأهل حقاً ، كل هذا الاحتفاء ، من جانب النقاد العرب ، فهو شاعر متعدد جوانب الشخصية الشعرية ، وكل جانب في هذه الشخصية الفريدة ، ثر وخصب ورائع .

والواقع ، ان الناقد ، قد اشتغل ، فعلاً ، بالجوانب الشخصية في الشاعر النابغ ، ودرس آثاره الفنية دراسة مكينة قوية ، واعجب به اعجاباً بليغاً . وكان مصدر هذا الاعجاب ، انه ادى رسالته الشعرية على النحو الذي يريده عليه المؤلف .

والمؤلف ، ناقد له نظرية ، اي انه يأخذ بالتفكير المذهبي ؛ فهو ، هنا ، يختلف عن « سانت بوف » الذي كان يأبى ان تسيطر عليه في طريقته النقدية فكرة ما ، ويحاول دوماً ، ان لا يكون له مذهب يطغى عليه في اسلوبه النقدي . وكان يقول عن اصدقائه والمعجبين به : « لقد سرهم ان اكون قاضياً صالحاً ، ولكن قاضياً لا يرجع الى قانون » اما صاحب « شاعر العصر » فكان قاضياً ، اتخذ له قانوناً لا يحيد عنه ، وجعله محوراً يدور عليه في احكامه ، ومعياراً في تقييم كل صنيع فني .

ويزيد من قيمة الكتاب ، ان الناقد لم يكن محدود الاحساس وهو يحكم على الشعر والشاعر ، اي انه لم يكن مستنداً فقط على نظريته ، ومقاييسه في تبيين الجمال الفني ، ولكنه يضيف الى ذلك ، احساساً رهيفاً وذوقاً مترفاً في انتقاء النماذج الشعرية الصالحة فالنقد عنده علم وفن معاً ، يقوم على التفسير والتعليل والتحليل من ناحية ، وعلى الحس الدقيق والتذوق الرفيع من ناحية ثانية .

غير انني اختلف مع صديقي المؤلف في بعض رأيه ، نتيجة لاخذ كل منا ، منحى خاصاً في تفكيره المذهبي ، وهذا التباين في الرأي ، لا ينال في شيء ، من قيمة الكتاب الفنية ، من حيث انه رسالة قوية في النقد الادبي ، عالجت ابحاثاً دقيقة ، في الادب ، بكثير جداً من الشجاعة والعمق والتذوق .

ففي الكتاب آراء ، كان المؤلف يرسلها ارسالا دون ما تحديد او ضبط ، ولذلك لم تكن لتخلو من الخبط والغرض والانحراف والتجني . فقد هاجم « جماعة التبشير بالحرية المطلقة » وراح ينال من ممجدي العرق العربي ثم . . الداعين الى نظرية التفوق والكبرياء القومية ، وفي الوقت نفسه ، يندد بالحجر على حرية الفكر ، ليصل بالنتيجة ، وبالاساليب المعروفة ، الى البكاء والاستبكاء ، من محاربة الشعوبية والمادية والفوضوية واخيراً الشيوعية . .

واخاله مغالطاً اذا لم يكن مخطئاً ، عندما وجد في قول شوقي وهو يرثي الشهيد العربي عمر المختار ، ممجداً بطولته وجهاده واستشهاده :

ليس البطولة ان تعب الماء ... ان البطولة ان تموت من الظما

انه دعوة لقبول الواقع والتزهيد بغنى المال ، وانه تخدير وتثبيط وتسكين وضرب ابر المورفين !

وليس صحيحاً يا صديقي نجيب ، ان الاشادة بالامجاد القومية ، وبمجيد العرق العربي للحفاظ على الخصائص العربية وتنمية الشخصية العربية ذات الطابع الفريد المميز ، من اجل بعث العزائم وشحذ الهمم ، اقول ليس هذا النمط من التفكير او الكتابة نازية او فاشستية او عرقية ، او ان فيها احتكاراً للقمح وتجويعاً للجماهير ونهباً للرغيف .

ولماذا يا صديقي نسمي الادباء العرب الذين يمجدون العنصر العربي والتاريخ العربي والامجاد العربية ، ببغاوات بريئة او اشباه ادباء ، او ذوي اقلام مأجورة ؟! الأنهم لم يمجدوا انتصارات الجيش الاحمر ، ويشيدوا ببسالة الجندي الروسي ، ويتحدثوا طويلاً عن الحرية والفن التقدمية في جمهوريات الاتحاد السوفيتي ؟!

هذا الشطط والتحيز في ارسال الاحكام النقدية هو من مساويء التفكير المذهبي اطلاقاً ، على اخذي بهذا الضرب من التفكير الذي يجب ان يكون مستقيماً في مجالي التفسير والانشاء ، رغم انه لا يخلو في الغالب الاعم من الضيق والغرض والتعسف .

ويعنى الاستاذ الناقد عناية كبيرة بوحدة الموضوع ، او الوحدة الفنية على انها مقياس لجودة الشعر واعجاز الشاعر . ويجد ان الذاتية مما يضعف من قيمة الاثر الفني . كما انه يهاجم بلا هوادة ، أدباء

الروحية والذين ينعون مادية الغرب .

وانا ، لا ارى في وحدة الموضوع ، كل هذا الاثر ، او بعضه في تقييم الشعر ، لان القيمة الحقيقية للفن ، اعمق من ان تقف عند هذه المعايير الظاهرية التي لا تمس جوهره الاصيل . اما الذاتية في الادب فهي عنصر اساسي في الادب الحي، وهي المادة الفاعلة التي يريقها الفنان على صنيعه، ليبث فيه الرواء والحركة والحياة. واما الحديث عن روح الشرق ومادية الغرب ، فلا اجد كبير مسوغ لهذا الاطناب فيها ، كأن ليس ثمة نزوع مادي في الشرق او اتجاه روحي في الغرب . والواقع ان الروح والمادة .. هما قطبا الثقافة والمدنية والحضارة في مجال النشاط الانساني .

ثم لماذا كل هذا النيل والتهجم على النزعة الروحية ؟ اما اذا كان صديقنا الناقد ، يقصد بالروحية ، الاتجاه الصوفي . فقد اخطأ المرمى ، لان ثمة بوناً بعيداً بين الروحية او المثالية كما نفهمها نحن، على انها استعلاء وفيض من القدرة، لا شعوراً بالعجز والضعة ، وبين الصوفية التي هي مجرد استسلام لقوى خارقة ، وهي بالتالي ، زهد بنعيم عارض طمعاً بنعيم دائم ، اي انها زهد ونسك واستخذاء .

هذا بعض ما عن لي قوله في الكتاب والكاتب، واضيف، ان من الظلم العبقري للصديق المؤلف، اذا لم اشد بجهده المشكور في هذه الدراسة القيمة. فهو قد اختط للدارسين والناقدين اسلوباً مكيناً متقناً في التحليل الادبي ، قائماً على الفهم العميق والاحاطة الواعية .

واذا كنت لا اقره على بعض من آرائه ، فلا يعني ذلك ، عدم الاعتراف بفضله وقدرته واصالته الادبية ، وانه القى اضواء ساطعة باهرة على الشعر العربي والرسالة الادبية، وقدم لجمهور الادباء والمتأدبين في المحيط العربي اسلوباً محكماً في ادب النقد يرتكز على الجدة والجرأة والتذوق الفني الاصيل .

ولا مشاحة ان هذا الاثر الممتع النفيس ، قد سد فراغاً كبيراً في مجال الدراسات الادبية في النقد العربي ، وهو خير عزاء لروح خليل مطران ، الشاعر الخالد ، في هذا المجتمع الجاحد .

دمشق — ناجي مشوح

برقة ، الدولة العربية الثامنة

لنقولا زيادة – ١٤٤ صفحة – دار العلم للملايين – بيروت

هذا كتاب من الكتب النادرة التي يحق للمكتبة العربية الحديثة ان تعتز بها . فقد ولد مع ولود برقة في شمالي افريقية ، وجمع بين دفتيه تاريخ البلاد من اقدم الازمنة الى يوم استقلالها بفضل جهادها الطويل المرير سنة ١٩٥٠ ، واحتوى على دراسة علمية سداها ارقام وحقائق ومشاهد تيسرت للمؤلف في اثناء عمله مساعداً لمدير المعارف سنة ١٩٤٩ في ذلك القطر الشقيق ، ولحمتها اسلوب ادبي رشيق انيق . وهذه مزايا ترفع الكتاب الى مرتبة لا نغالي ان نعتناها بالامتياز .

ان « العروبة » التي تملأ الافواه في هذه الايام ستظل لفظة جوفاء تتدوالها الالسنة فحسب، ما لم تعتمد على فهم عميق لحيوات الشعوب العربية . وهذا الكتاب يحقق مطلبنا في ركن واحد من اركان العروبة هو برقة . ومع انه احدث الاركان واصغرها ، اذ لا يتجاوز سكانه ثلث المليون الا انه اول لبنة في الكيان العربي ابرزها المؤلف كاملة المعالم متماسكة الاجزاء . والاقطار المغربية عامة ما تزال بعيدة عن تقليدنا لبعدها عن نظرنا . وقل ما نعرف عن تاريخها وجغرافيتها ومشاكلها الحديثة لندرة ما تتناولها الصحف العربية . فجاء هذا الكتاب ونقل شطراً منها من بعيد ووضعه تحت بصرنا نابضاً بالحياة والقوة والعزة .

ومع ان الكتاب وحدة متماسكة تتدرج من جغرافية البلاد الى شعبها فتاريخها القديم والحديث ، وليس فيه الا كل مفيد ، الا ان فصلي السنوسية وبرقة وايطاليا خليقان بالتأمل الطويل . ويرجع ذلك الى ان المؤلف زار البلاد ووقف على بواطن امورها وتحدث الى ساكنها وشاهد آثار « الحضارة » الفاشستية على الشطآن ، وكيف تدهورت اقتصاديات البلاد في تلك الفترة المظلمة (انظر جداول ص ١٤ و ١٥) . وثانياً الى ان المؤلف – على ما يبدو لنا – وضع في هذا الكتاب زبدة دراسة طويلة في المصادر العربية ولا سيما المستندات والوثائق التي لم يتيسر لاحد غيره الاطلاع عليها .

وليس فصل السنوسية (ص ٥٤ – ٧٣) الا نتيجة دراسة عميقة وشاملة لهذه الدعوة التي حاول « كثير من الباحثين الاجانب وفي مقدمتهم الباحثون الايطاليون التقليل من شأنها على اساس اعتبارها طريقة دينية صوفية لا تهتم بغير العبادة والزهد والتقشف . وهذا في نظرهم يبرر تصرفهم في الاستيلاء على ليبيا مثلاً اذ ليس هناك رياسة مدنية، وخاصة بعد ان سلمها الاتراك العثمانيون الى الايطاليين سنة ١٩١٢ .. ولكن الذي يتفق مع الواقع والحقيقة انها كانت من اول الامر دعوة دينية مدنية » .. الخ ص ٦٥ – ٦٦ . وهذا الفصل عظيم القيمة لان فيه تصحيحاً للتاريخ وجرأة في الدفاع عن الحق .

اما التاريخ الحديث فقد جلاه المؤلف بنزاهة وصدق . وقد وعى كنه العدوان وكنه البطولة وصورهما بصراع بين عملاق مزود بالاسلحة الحديثة وقزم يقاتل بما تصل اليه يده من بسيط السلاح .

ولكن من الوجهة الروحية القومية كان القزم جباراً كبير القلب والنفس، وكان العملاق صغيراً دنيئاً .. (ص ٧٩) . وليتأمل القارىء جيداً انفعالات النفس الواعية بالتاريخ العربي الحديث فيما يثبته المؤلف في الصفحات ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٣٨ .

وحين يقابل هذا الكتاب بما يكتبه بعض المؤلفين عن بلاد العربية دون ان يروها او يتحسسوا مشاكلها تبدو هنا ذهنية حديثة واتجاه صحيح حميد .

وكلمة اخيرة عن لغة الكتاب . فهي من الحسنات والبينات اذ لولاها لصكت الجداول والارقام والاسماء الغريبة العيون وصدت الكثيرين عن متابعة القراءة . فانظر وصفه الطريق من درنة الى طبرق« نظرت خلفي لالقي نظرة الى درنة من جهة الجنوب الشرقي فوجدتها كالصغير يحاول ان يلعب لعبة الاختباء . »ص١٠ . «ولم تقع العين على ما يذكرنا بالحياة الا هذه الاشواك التي تتغلب على الجفاف والا هذه الطريق التي كانت تمتد امامنا كأنها طريق الابدية » ص ١٢ . « ودرنة جميلة . وقد بدت لي والشمس تجمع آخر اشعتها ونحن منحدرون اليها كأنها حمامة بيضاء رقدت في احضان الاشجار المحيطة بها، واكثرها من شجر النخيل الباسق » ص ١٩ .

وبعد فما اشد حاجتنا الى كتب من هذا الطراز في هذا الدور من حياتنا ، والى كتاب من طراز المؤلف يجمعون بين عمق المعرفة وصدق النظر وخلوص العروبة ورشاقة الاسلوب .

اسحق موسى الحسيني

صور من العشق

لكمال منصور – ١٥٨ صفحة – مكتبة العلوم ومطبعتها – مصر

يزخر التاريخ العربي بقصص الحب القوي العنيف التي انبثقت من اعماق الحياة لا من اغوار خيال خاص مبدع ، وكم في صور الحياة من ابداع يفوق احياناً ما ينسجه ذهن ابرع الكتاب، ومما يدعو الى الاسف ان كتاب القصة في الادب العربي لم يولوا تلك القصص التاريخية ذرة من اهتمامهم ، ولم يتطوع احد منهم للاقبال عليها في عناية واماطة غبار الزمن عنها واخراجها بحلة انيقة قشيبة تجتذب القراء بجمالها وفتنتها .. كلا . ان احداً منهم لم يكلف نفسه هذا العناء. وتركوا تلك القصص خاملة متطامنة في بطون الكتب القديمة لا يجرأ قارىء على الدنو منها لتهافت بنيانها وسوء تركيبها وتهدم اسلوبها. ولا افهم سبباً لهذا العزوف اللهم الا الاهمال واللامبالاة ، في حين يضرب لنا ادباء الغرب اروع المثل في القصص التاريخية التي تلفظها مطابعهم على الدوام . ومع ذلك فلم تحرم تلك القصص – بين حين وآخر – من بطل يأخذ على عاتقه هذه (التضحية !) فيجلو عنها الاتربة المتراكمة ويقدمها الينا بأسلوب عصري حديث ، وعلى رأس هؤلاء الابطال الاساتذة عبد الحميد جودة السحار وعلي احمد باكثير ورئيف خوري ، وجرجي زيدان وقد انضم اليهم اخيراً الاستاذ كمال منصور، فقد جلا لنا في كتابه « صور من العشق » عن وجوه طائفة من تلك القصص الرائعة .

ويقع الكتاب في ثلاثة ابواب ، او ثلاث صور على الاصح، في الصورة الاولى قدم لنا المؤلف جمهرة من اقاصيص (المغنيات العاشقات) . فروى لنا قصة « حبابة » و« سلامة » و« شادية » و« عريب المأمونية » و« دنانير » و« علية بنت المهدي » . فنجد انفسنا امام قصص تنبض بالعاطفة الصادقة وتفيض بالحب العنيف. ولا ريب ان الاستاذ كمال قد وفق باسلوبه الجياش في عرض تلك العواطف الانسانية المتدفقة في صورها المثلى ، ولن يقتصر وعي القارىء على الاستمتاع بتلك الصور العاطفية بل يتجلى له ما بلغته الحياة الفنية من تقدم ورقي في صدر العصر الاسلامي، كما يتبدى له كيف تدفقت الاموال على شرذمة من الناس فعاشوا عيشة بذخ فوق نطاق التصور، بينما كانت الاغلبية الساحقة من الشعب تعيش على هامش الحياة!

وفي الصورة الثانية عرض لنا المؤلف اقاصيص من طراز آخر (عذارى الهوى) امثال « ليلى » و« لبنى »و« بثينة » و« عفراء » و« ميلاء » ، وبعض هذه القصص ذو شهرة بحيث لا يكاد يجهلها قارىء عربي ، كقصة « ليلى » او « بثينة » او « لبنى » ، ولكن المؤلف عالجها بأسلوبه الخاص الذي يمزج بين التاريخ الصادق والخيال المحلق ، ومع انني لا اتفق مع الاستاذ كمال على تسمية تلك القصص بـ (عذارى الهوى) الا انني اعترف انه وفق في عرضها ، ولعله اراد ان يؤيد المعسكر المنادي بالهوى العذري فأطلق عليها تلك التسمية ، ويلوح لي ان هذا النوع من الهوى الذي شاع في صدر الدولة الاموية لم يكن في واقعه سوى ستاراً مهلهلا لتغطية العواطف الحقيقية التي طغت عليها موجة من التزمت والا ، فلم كان هؤلاء العشاق يتحرقون شوقاً للاتصال ببعضهم في الوقت الذي كان بوسعهم ان يلتقوا ببعضهم لقاء (بريئاً) ؟!

اما الصورة الاخيرة التي قدمها المؤلف في كتابه فهي ضرب آخر من العشق يختلف بعض الاختلاف عن الضربين السابقين ، فقد عرض علينا في صورته الثالثة هذه قصة « النبي سليمان العاشق » و« خطيئة داود » و« ثامار »و« رابعة عاشقة الله » . والاقاصيص

الثلاث الاولى تتحدث عن غرام جماعة من الانبياء، اولئك العظماء الذين يعشقون كما يعشق باقي البشر، ويتصرفون في حياتهم العادية كما يتصرف سائر بني الانسان. وهذه الاقاصيص قد وردت في كتاب (العهد القديم) لكن الاستاذ كمال منصور رواها على طريقته الخاصة وبأسلوبه الجميل.

اما قصة (رابعة عـاشقة الله) فهي تصوير لحب من صنف آخر .. حب الله ! وهو نوع من تصريف العاطفة المكبوتة باسلوب آخر من اساليب الحياة المتنوعة.

وبعد، فنحن امام بداية موفقة في الاقصوصة التاريخية، وحبذا لو اتجه الاستاذ كمال منصور بفنه القصصي نحو هذه الناحية المهملة من فن القصص في الادب العربي الحديث فسد لنا ثغرة من هذا النقص الخطير.

القاهرة — شاكر خصباك

طرفة الاصحاب في معرفة الانساب

تأليف الملك الاشرف سلطان اليمن. تحقيق المستشرق السويديك. و. سترستين قدّم له ونظر فيه صلاح الدين المنجد – ٢٤٨ صفحة – حجم كبير ورق صقيل – مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

حكم اليمن، ايام الايوبيين، لسرة آل رسول. وهي اسرة ادت الى اليمن خدمات جلى. لان ملوكها كانوا من العلماء الذين جمعوا الى سعة العلم المهارة في الحكم. ومن افرادها الذين كان لهم شأن الملك الاشرف عمر بن يوسف بن رسول المتوفي سنة ٦٩٦هـ. وقد كان عالماً، فألف، فيما الف، كتاب طرفة الاصحاب في معرفة الانساب.

وهو كتاب في انساب العرب. وهو من اجمع كتب الانساب التي وصلت الينا، اوسع من الاشتقاق لابن دريد، ومن المقتضب لياقوت، ومن الجمهرة لابن حزم. لان فيه اصول انساب القبائل العربية، ونسب النبي والصحابة، ونسب الخلفاء الامويين والعباسيين، ونسب بني رسول، والاشراف في اليمن.

حقق هذا الكتاب المستشرق السويديك. و. سترستين، وارسله الى المجمع العلمي بدمشق. فعهد المجمع العلمي الى الاستاذ المحقق صلاح الدين المنجد ان يقدم له، وينظر فيه، ويصنع فهارسه.

ان المقدمة التي كتبها الاستاذ المنجد، من اوسع ما كتب في الانساب حتى الآن. ففيها نظرة دقيقة، تتبع التطور التاريخي في منشأ الانساب، وعناية العرب بها، ثم عناية المسلمين بها، والتحول الذي طرأ على مفهومها ايام العباسيين، والفاطميين، ثم تبلورها بشكل ديني، وظهور الاشراف واهل البيت، والميزات التي كانوا يتمتعون بها.

وقد سلك الاستاذ المنجد طريقة علمية، تبهرك بكثرة مـا تجد في ثناياها من استنتاجات بارعة. هذا الى جانب ما عرف عنه من دقة في التحقيق. وقد ضمت مقدمة الاستاذ المنجد مائة كتاب، استطاع معرفتها في الكتب التي الفها العرب في الانساب.

اما الكتاب نفسه، فهو مرجع مهم لذكر القبائل العربية، وبطونها، وقد عني الاستاذ سترستين في ضبط الاسماء. ومقابلتها. وقد زادت الفهارس التي الحقت بالكتاب على مائة صفحة.

اننا نشكر للمجمع العلمي عمله المستمر في نشر تراث العرب، ونقدم تهانينا الى الاستاذين سترستين، والمنجد.

سنابل الزمن

لمحمد قره علي – ١٤٩ صفحة – مطابع دار الكشاف – بيروت

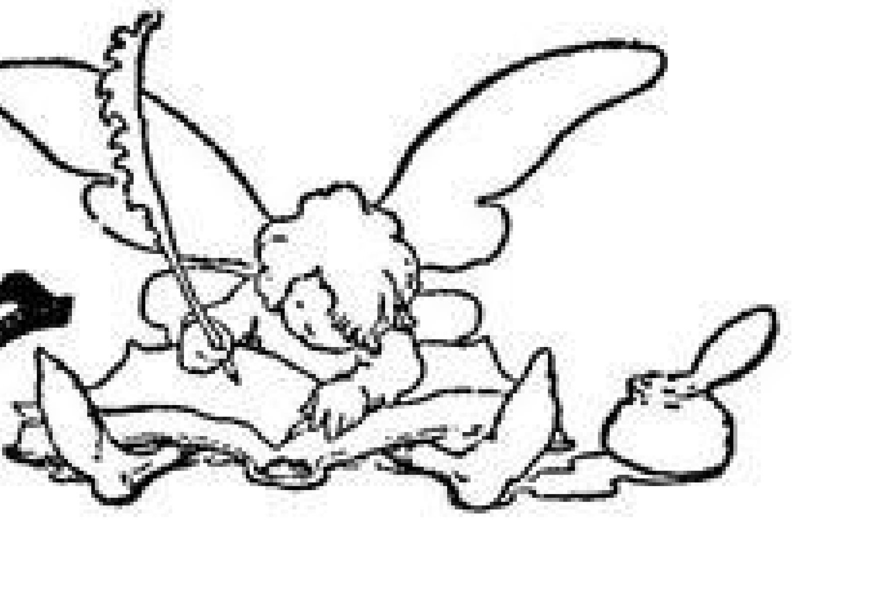
هذا هو الكتاب الثاني الذي يضعه الاديب العصامي الاستاذ محمد قره علي بين يدي قرائه بعد ان نفحهم «يوحي فطرته» منذ سنتين خلتا. ولئن كان فضل اديبنا في وضع وحي الفطرة اوفر من فضله في جمع «سنابل الزمن» فان له علينا حق الاعتراف بالجهود الحميد الذي صرفه بسبيل تعهد هذه السنابل حبة حبة حتى اذا ما نضجت وتكاملت واستوت على سوقها قدمها غذاء روحياً دسماً لقراء العربية من طلاب الحكمة والمعرفة.

والحق ان هذا الزاد الدسم الذي بين ايدينا قد توفرت فيه جميع عناصر التغذية الصحيحة فهو يجمع من مأثور القول وخـالد الحكمة ونفيس الشعر وسائر المثل مـا يكفي لان يشق امام كل انسان طريقاً في الحياة لا حباً تقل فيه العثرات والاشواك وتنتثر على جانبيه ورود الخبرة بطبائع البشر والمعرفة بطبقات المجتمع ونظامه وتنيره هالات الحق والحقيقة واضواء الحب والجمال. ولو سار كل انسان على هذا الطريق لاقام في الحياة مقاماً هانئاً لا شائبة فيه من هم او كدر ولا عتمة تخيم عليه من جهالة وصغار.

لقد طالعت «سنابل الزمن» غير مرة واحدة فكنت في كل مطالعة اخرج وفي نفسي اثر عميق منها وتقدير عظيم لجامعها ومصنفها. فانا فخور بان اقدم اليك ايها القارىء العزيز هذه السنـابل الندية الضاجة بالحياة، فأنت ان لم تفد مما تحتويه من دروس في الاخلاق والحياة فانك ستقف من خلالها على شخصية كونتها عصامية فذة ودأب مستمر وتشوف متفائل، وانك لن تستطيع الا ان تشعر نحو هذه الشخصية بالاعجاب والاكبار.

وانت يا اخي محمد الذي يتهمني كثير من صحبي بأنني ازجي لك دائماً من الاطراء اكثر مما تستحق تقبل مني على رقة سنابلك تحية اعجاب خالصة مقرونة بعواطف التقدير والاحترام.

رشيد شقير



جولة الأديب في شهر

مقدمة كتاب شعراء وخلفاء

« شعراء وخلفاء » كتاب ضخم باللغة البرتغالية اصدره الاستاذ موسى كريّم صاحب مجلة الشرق التي تصدر في سان بولو بالبرازيل. وقد وضع مقدمة الكتاب العلامة البرازيلي الدكتور سيزر سلفادو وترجمت هذه المقدمة الى ثلاث لغات: الافرنسية والانكليزية والقشتالية. وها نحن ننشر مقتطفات من الترجمة العربية التي قام بها الاستاذ توفيق ضعون مراسل الاديب ووكيلها في البرازيل

●

عندما نتحدث عن المدنية العربية يتبادر الى اذهاننا شيء اسطوري مدهش ولكنه لبعده يبدو كفردوس الله صعب المنال. ذلك اننا اذا استثنينا « الف ليلة وليلة » لا نعرف مرجعاً ادبياً نستنطقه حقيقة ذلك العصر الذهبي من تاريخ الانسانية. واذا نحن فتشنا مكاتب ادبائنا لم نعثر الا على نزر يسير من المؤلفات ذات الطابع العلمي او ما لا يعدو الوصف السطحي « كجدول اسفار » لشاتوبريان و« رحلة في الشرق » للامرتين. او ما هو اندر « كالمدنية العربية » لغوستاف ليبون.

واذا تعدينا نطاق الناشئين المحدود لا نجد ما يذكرنا بحياة ذلك الشعب العظيم سوى الصحراء، حيث نتصور فارساً تعصف ببرنسه الرياح او قصوراً تكاد تكون من نسج الخيال تعكف فيها اميرات حالمات على تلاوة اقاصيص الحب والبطولة التي يبدو لنا فيها البدوي تسوطه ريح السموم في بحر من الرمال لا ساحل له، او هارون الرشيد بمهابته وجلاله مغمض الطرف وفي غفلة عن مشاغل ملكه المترامي لكي لا تفوته كلمة واحدة من حديث شهر زاد العذب الخلاب. وفي هذا الجو ندر من يعلم اين تبتدىء الحقيقة واين ينتهي الخيال.

والراهن هو ان الحوادث التي تحدد نشأة الامة وادوار نموها وتوثبها تتناوب فيها اليقظات والغفلات في افق من البطولة الاسطورية كومضات لم يخبُ بعدُ نورها.

وما اشبه عنترة الذي قيل فيه انه اشعر الفوارس وافرس الشعراء بهوميروس شاعر الاغريق من حيث استنطاقه اوتار قيثارته اناشيد الحب واهازيج الوغى فتحس البلاد العربية بأسرها كأن ابياته الخالدة تيار عاطفي ينساب في عروقها ويحفز كيانها ونبوغها القومي الى التحويم فوق وسيع البحار وشاسع الامصار.

ومما يقوله المؤرخ «حتي» انه في مستهل القرن التاسع عشر ساد المسرح العالمي عاهلان خطيران هما شارلمان في الغرب وهارون في الشرق وما من شك في ان هارون كان الاقوى ويسيطر على امة اعلى كعباً في مضمار الثقافة بدليل انه بينما كان الخلفاء يدرسون الفلسفة كان شارلمان ورجال بلاطه يتمرنون على كتابة اسمائهم.

واذا نحن اخذنا برأي الاديب الساخر برنارد شو وهو «ان تفوق الشعوب يقاس بمقدار ما تستنزفه من الصابون» وعلمنا ان بغداد كانت في ذلك العهد تضم واحداً وعشرين الفاً من الحمامات، تبدى لنا سكان تلك العاصمة الزاهرة في مستوى فذ من الرقي الاجتماعي اذ هم كانوا بعكس الغربيين على صلة دائمة بالماء.

ومن يتأمل لحظة صنيع العرب المدهش في شبه الجزيرة القشتالية لا يسعه الا ان يشاطر تيوفيل غوتيه اسفه لتقلص ظلهم عنها. وهاك ما قاله ذلك المعلم:

« اني ما خلوت الى نفسي مرة الا اسفت لان العرب لم يظلوا سادة اسبانيا اذ انها باجلائهم عن ربوعها منيت بخسارة لا تعوض ».

والمجد الذي احرزوه كان بادي المعالم في جامعة قرطبة التي كانت اوفر مدن اوروبا ثقافة، تليها جامعات اشبيلية وملقة وغرناطة. ولما كان منشئها عبد الرحمن الثالث كانت اقدم عهداً من الازهر في مصر والنظامية في بغداد، وكان يؤمها الطلاب المسيحيون من اوروبا وآسيا وافريقيا

اما المكاتب فقد كان اشهرها تلك التي انشأها الحكم في عاصمة الخلافة وقد احصي عدد ما كانت تضم من المجلدات اربعمائة الف.

وهنا نرى، كما يقول القشتالي فيدل فرناندس: « ظاهرة ذات اهمية كبرى يجب ان تتجه نحوها بملء الانتباه انظار فلسفة التاريخ وهي ان حرية الفكر والبحث التي كلفت اوربا الخرفة بعد قرون عديدة انهاراً من الدماء كانت تنعم برعاية الملوك العرب في غرناطة ».

ان الاستاذ موسى كريم قد اقتادنا وسرح ابصارنا في ذلك

« البستان المقفل » الذي كان الى عهد قريب المدنية العربية التي نسمع بها وتخفى عنا حقيقتها . وقد استطاع هذا المواطن الثقيف ان يضطلع بخدمة ممتازة لم يسبق للثقافة البرازيلية ان حظيت بمثلها فكل كتاب اصدره كان فتحاً جديداً .

ان كتبه بذاتها تغنيه عن كل مديح وتغمره بعطف وتقدير معاصريه وهي «خلفاء بغداد»، «قصائد جبران»، «مذكرات الامير امين ارسلان» «حدث في دمشق» مؤلفه هذا الاخير «شعراء وخلفاء».

لقد اتحفنا هذا الكاتب الباولستاني المجيد بحقائق ووقائع التاريخ العربي الاخاذ، ولا يسع القارىء عندما يأتي على مؤلفه الرائع الا ان يعترف بشيء قليل او كثير من الخجل بانه الآن فقط اكتشف مدنية عظيمة .

لنَدنُ مثلاً من المتنبي، ذلك الشاعر المحلق في سماء الالهام والذي يخضع له الوزن والقافية والصورة الفكرية خضوع الارقاء.

ومن هو ؟ ان موسى يقول لنا منذ البداءة انه اعظم شعراء العربية في العصر الاسلامي . بعد ذلك يروي لنا شيئاً من غريب اطوارة وطرفاً من حوادث حياته القلقة مستشهداً بمقاطيع من شعره تمور بالجمال ورقة التعبير وبراعة التصوير .

اي شاعر سواه استطاع ان يشيد بشجاعة المحارب بمثل هذا البيت :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

ثم هو ينقلنا الى بلاط سيف الدولة امير حلب فنفاجىء المتنبي وهو ينشده قوله :

الا ايها السيف الذي ليس مغمدا ولا فيه مرتاب ولا منه عاصم

كان هذا الشاعر طموحاً لا يشبع نهمه المجد الادبي وحده فادعى النبوة وجرت عليه دعواه مناوأة خصومه . وها نحن نراه بعد ذلك طريداً في ظل عرش المغتصب كافور في مصر ينشد مفاخراً :

وما الدهرُ الا من رواة قصائدي اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا

ولكنه لم يلبث ان خابت آماله بكافور فيمم وجهه شطر العراق وبلغ بغداد وشيراز .

وبينا هو يقطع في عودته الصحراء يصحبه ابنه وعبده تصدى له نفر من خصومه فآثر الموت على الهرب لرؤيته في موت الشاعر البطل اروع قصيدة يمكن ان تنظم في اي عصر وفي اية لغة . وهكذا اقدم ولقي حتفه محارباً .

وفي الصورة التي يرسمها لنا موسى كريم من هذا الشاعر الفذ دليل قاطع على قوة اسلوبه وبراعته في رسم الخطوط الرئيسية من ملامح الادباء حتى ان شخصية المتنبي كرجل وشاعر لتبدو لنا حية متوثبة.

وبالاسلوب عينه يرسم لنا موسى بقية الشخصيات وبينها المعري الشاعر الفيلسوف وهارون الرشيد الخليفة العظيم وابا نواس شاعر الخمر وابن بطوطة ملك الرحالين وابن خلدون السابق والمجلي في علم الاجتماع .

في (شعراء وخلفاء) درس جليل يبدو لنا فيه موسى كريم عالماً ومحللاً لمشكلة من اكثر المشاكل الادبية اغراء في زماننا هذا وهي تأثير القرآن في اسلوب دانتي في رائعته (الاهزولة الالهية).

ان من يقرأ فصل (محمد ودانتي) لا يسعه الا ان يجزم بأنه افضل ما كتب في هذا الموضوع اذ هو يتناول فيه بالبحث كل ما قيل جدلا ونقاشاً واثباتاً ونفياً ويجيب على ما يورده من تساؤل واحتمالات برأيه الخاص .

وفاة المستشرق جان سوفاجيه

●

توفي جان سوفاجيه فخسر عالم المستشرقين وجهاً نبيلاً مشرقاً وخسر العالم العربي انساناً عرف كيف يحب وعرف كيف يعطي وعرف كيف يدافع عن القضايا العربية مهما لاقى من عنت وارهاق.

فقد عمل دائماً على نشر الحقيقة، وكان آخر ما عمله قبل وفاته ان وقع على البيان المغربي المطالب باستقلال المغرب وكان البيان

شديداً على الحكومة الفرنسية ولكن سوفاجيه قام بهذا العمل لان مبادىء الاخاء والحرية والمساواة التي تبشر بها بلاده اصبحت جزءاً من حياته وكيانه ، وكان الطلبة العرب في باريس يحبون سوفاجيه حباً عميقاً لانه كان يسعى دائماً لصالحهم سواء في السوربون او الكوليج دي فرانس او في مدرسة الآداب الشرقية حينما كان يلقي عليهم فوق دروس الادب والفقه دروس الاخلاق والفضيلة .

ويعد سوفاجيه في مقدمة المستشرقين في كل ما يتعلق بالتاريخ العربي والآثار العربية .

وفي سنة ١٩٣٧ عين استاذاً للتاريخ الشرقي الاسلامي في مدرسة العلوم العليا بباريس واستاذاً للجغرافيا وتاريخ الشرق الادنى في مدرسة اللغات الشرقية .

وفي سنة ١٩٤١ قدم رسالة لنيل الدكتوراه عنوانها « محاولة في درس تطور مدنية سورية كبيرة منذ تأسيسها حتى منتصف القرن التاسع عشر» وعين في نفس الوقت استاذاً للفنون الاسلامية في مدرسة متحف اللوفر وعكف على دراسة الوثائق الخاصة بتاريخ الصليبيين والتي تنشرها أكاديمية الخطوط والآداب .

وفي سنة ١٩٤٥ عين استاذاً للتاريخ العربي في الكوليج دي فرانس.

ولم يشغله عمله الفني عن التأليف فنشر اكثر من ٥٨ مؤلفاً اشهرها — مقدمة تاريخ الشرق الاسلامي —و« المؤرخون العرب» وقد ترك عدة كتب تحت الطبع .. وبينها كتاب عن تطور الخط والاصطلاحات الانشائية التي استعملت في الابنية والمعابد والقبور . .

كان الى وقت قريب جداً على خير ما يكون من صحة وعافية واذا بمرض « الصدر » يفاجئه فيعتكف فترة قصيرة في احدى المصحات . . ولكن لم يشأ القدر ان يمهله ليوالي كفاحه ونضاله . فترك وراءه ثلاثة اطفال صغار وترك وراءه مئات من الطلبة العرب في باريس يبكون فيه الرجل الفرنسي الذي احب العرب واخلص للقضايا العربية .

مقتطفات مترجمة

•

• كتب « بيار اوريا » في جريدة الاخبار الادبية يقول : يطمح الاونسكو الى ان يكون الجمهورية العالمية للآداب والفنون ، وقد قام المشرفون عليه باستفتاء تضمن اربعة وعشرين سؤالا للشعراء والفنانين . وتميزت جميع الاسئلة هذه بصفات واحدة مشتركة ، ولاح فيها اهتمام بمسألة واحدة متعددة الجوانب :

ايستطيع الفنان الابقاء على حريته، وسط هذا العصر الصاخب بقرع الطبول والدعايات ، وبين ادباء مشهورين عظماء ، اقام كل منهم حول نفسه وأدبه ستاراً حديدياً ، ثم الا يكون الفنان مجبراً بالتالي على خسارة الكثير من ذاته الفنية حين يضحي ما يضحي في سبيل الشهرة والدعاية ، والرأي العام . هذا اذا اهملنا الاشارة الى تضحيته، بدافع عرفان الجميل ، الواجب عليه تجاه من شجعوه بالمساعدات الادبية ، والمالية ، والفنية .

لا شك ان الفنانين في كثير من اقطار العالم يجيبون على هذه المسألة بانهم يشعرون بحريتهم المطلقة، وانهم لا يحملون المباخر لاحد، وان الغار، على جباههم، هو هبة الفردية الفنية الشريفة، وحدها . ولكن مدراء الاونيسكو تجاهلوا سؤالا كان جديراً بهم طرحه على الفنان : هل انت حر في ذاتك ؟ وما مدى علاقة آثارك الماضية ، بتوجيه وهبتك الخلاقة المتجددة ؟

لا شك ان اشد انواع العبوديات ، هي تلك القيود التي يغلل الفنان بها نفسه وفنه، فلا يستطيع التحرر مثلاً من اسلوبه الذي عرف به ، وطريقته الخاصة، وسلطان آثاره التي لاقت نجاحاً ورواجاً .

ان حرية الفنان هي في هجر الطريق الممهدة الواسعة، وشق مسلك فريد مجهول ، وهي الرغبة

في التجديد ، والذوق المتطور ، وارادة التنوع الجمالي ، ولو جازف الفنان ، وكان عرضة للهبوط او الانتحار .

وهذه الحرية المطلقة تفسر لنا كيف ان فنانين« كفيكتور هيجو » و« رينوار » و« رافيل » حافظوا ويحافظون على مستواهم في دنيا الخَلق والابداع .

● مشاهدات « ليون بول فارج ». صدر في باريس كتاب « لليون بول فارج » الكاتب الفرنسي المتوفي اخيراً ، يتضمن مشاهداته اثناء رحلاته وتنقلاته بين المدن الفرنسية.

وفارج كاتب دقيق الاسلوب ، وشاعر من رفاق فاليري، يلم بكل مواضيع الوجود ، مختاراً منها ما يتفق مع فنه الشعري .

ومواضيع كتاب المشاهدات الذي صدر اخيراً ، وكان هدفاً لتعليقات الصحف الفرنسية مدة طويلة ، تدور اكثريتها حول اشياء متفرقة ، اذ صور الكاتب الحب ، والبحر ، والطرقات الجبلية ، واناقة النساء .

ثم توقف الكاتب عند ليون مدة طويلة، ووصفها وصفاً دقيقاً يأخذ بجامع القلوب ، ثم تحول الى باريس ، وصور اوساط الطلبة والفنانين واماكن اللهو، وانتقل الى ميدان Médan بلد زولا، فبالغ، عند الحديث عن القصصي الفرنسي الواقعي ، وجعل منه شاعراً .

وعاد الى العهود الادبية الفرنسية الماضية، واعطى نظريات جديدة في باسكال و « لاروشوفوكو » . وانتقل فجأة الى بول فاليري ، ونقد « المقبرة البحرية » نقد المتذوق الفنان .

ثم حاول الحديث في السياسة فمنعته شاعريته، وقد ابت الا ان تبعده عن مسارحها المضطربة ، المغلفة بالرياء .

● ظهر للشاعر الفرنسي المشهور « جوزيف سيباستيان بون » مجموعة شعرية يجد في قصائدها مقاطعة كاتالان ، مسقط رأسه .

وبون شاعر ريفي يظهر في شعره بعض الشبه بفرجيل وسيسترال وهو يتغنى في هذه المجموعة(وعنوانها«معزوفة الصيف في روسيون» (Roussillon) بهذه القرية، فينقل الينا عبيرها وجوها، وايحاءاتها، وصورها الحالمة ، وكل ما يقربها الى العين والقلب ، وهو يقول في مقدمتها : « يجب قراءة هذه القصائد المجبولة بتربة بلدي ، الحية بنفحات البحر والجبل، في مكان ريفي هادىء حيث تقر الحواس، وتتحد النفس بالصورة ».

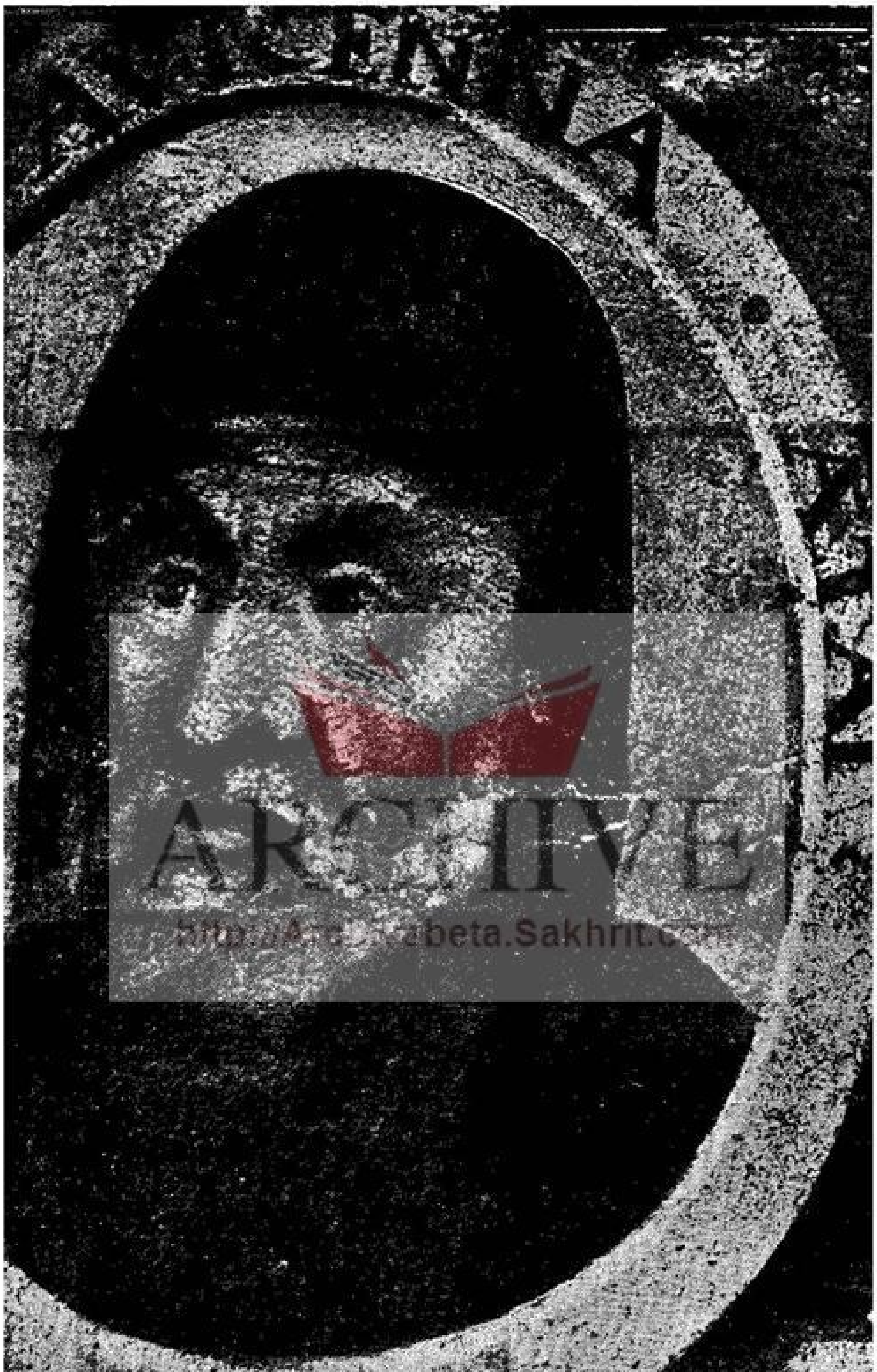
والكتاب حافل بالالوان المحلية ، والبساطة الانسانية المحببة تلوح في شخصياته الخطوط الدالة على النفس بمعنييها المحلي والواسع.

اما وصف المناظر الطبيعية فغاية في الصدق والطرافة، وانت تنطلق معه وتحوم حول الكهوف الجبلية ، والغدران المخضوضرة ، والقمم الشاهقة ، والادواح السامقة ، والآثار التاريخية القريبة من القرية المعبودة . ومن وراء كل هذا تلوح الروح القروية البسيطة في كل طراوتها وعمقها .

● تحت هذا العنوان خصص بول كروزي Paul Crouset، (وهو عالم في التربية ملأ ارفع المناصب في عدة كليات) دراسة طويلة، في موضوع يشغل الاوساط الاجتماعية والتربوية في فرنسا اليوم ، وهو تربية الفتيات . والاستاذ كروزي لا ينتقد ، في هذه الدراسة ، منهج البكالوريا الفرنسية مهاجماً اوهادماً بل يعطي بعض الملاحظات اتضاف الى المنهج ، ليصبح اكثر انسجاماً وموافقة للفتاة . فهو، كما يقول ، يريد « تأنيث » المنهج . وهو يرى ان التهيئة للحياة، افضل، في طبيعة الحال، من توزيع العلوم على الفتيات، وحشو رؤوسهن الجميلة بما هب ودب من الاصناف الجافة المحنطة . وهو يرى ان كل الطرق ، حتى العلمية منها تتطور في عصرنا الحاضر ، نحو غاية واقعية تجريبية ، فكيف بالتربية، وهي هي التجربة الواقعية الفريدة ، كما يدل عليها اسمها .ولذلك فهو يقترح ان تكون التربية النسائية تكويناً لشخصية المرأة وليس علوماً مجردة .

وهو يطالب بالتنويع في المناهج، وفقاً للجنس والبيئة، ثم يطلب فصل الجنسين ، بتقسيم منهج البكالوريا الى قسمين احدهما للذكور والآخر للاناث .

ويقول« الاستاذ كروزي »وهكذا لا نؤمن الاستقلال لكل جنس فحسب بل نمنحه الحرية التامة المطلقة المنبثقة عن دراسة معطيات وطبيعة كل منهما .وفي هذا السبيل يقترح«بول كروزي» عدة اقتراحات ، منها اعفاء الفتاة من بعض الفروع التي يرى انها لا تهضمها عادة ولا تعطي فيها نتائج ممتازة، كالرياضيات والجيولوجيا ويقترح الكاتب الاستعاضة عن امثال هذين العلمين بالفنون المنزلية والمعلومات في تربية الاطفال ، والتطبيب ، وكل ما يؤهلها لان تكون اماً وزوجة ، لان الكاتب يرى ان عجز المرأة عن تدبير امور منزلها هو اخطر ما يهدد مجتمعنا، ثم يقول : ان ارادة المساواة بين الجنسين تحققت بمشروع «ليون بيرار » الاصلاحي ولكن اذا كانت المساواة حقاً من حقوق المرأة ، فان الامتزاج الكامل هو مطمح خطر يناقض الحقائق البيولوجية ، ومعطيات السعادة الانسانية .



صورة غير معروفة للرئيس ابن سينا
اكتشفت حديثاً في جامعة اكسفورد في اثناء ترميم
جدار احدى قاعات مكتبة بودليان

أنباء العالم في شهر

٢٣ مارس ١٩٥٠ – الف سوفوكل فنزيلوس رئيس حزب الاحرار الوزارة اليونانية من اعضاء حزبه .

٢٤ – فشل الكونت دي فيار في تأليف الوزارة البلجيكية ، واضرابات العمال ومظاهرات الطلبة قائمة احتجاجاً على محاولة رجوع الملك ليوبولد .

٢٥ – عقد في القاهرة اجتماع مجلس الجامعة العربية للدورة الثانية عشرة وتغيب وفد المملكة الاردنية الهاشمية . وخطب النحاس باشا وطالب باختيار مندوب لتمثيل عرب فلسطين في الجامعة .

٢٦ – اعلنت حكومة بوليفيا انها احبطت مؤامرة شيوعية لقلب الحكومة .

٢٧ – اعلن في مجلس العموم البريطاني ان انكلترا لن ترسل سفيرا الى اسبانيا ما دام قرار هيئة الامم بمقاطعة اسبانيا نافذا .

٢٨ – إعلن مستر تشرشل في مجلس العموم يجب على بريطانيا وفرنسا ان ترفعا المانيا الى وضع متساو معوضعيها لتشكيل مركز موحد للدفاع عن اوروبا غير الشيوعية .

٢٩ – وصل الى لاهاي المستر جونسون ناظر الدفاع الاميركي لحضور اجتماع وزراء دفاع بلدان الحلف الاتلنطيقي .

٣٠ – توفي ليون بلوم رئيس الحزب الاشتراكي الفرنسي واحد رؤساء الوزارات السابقين

٣١ – دعا الرئيس ترومان امينه الخاص في الشؤون الاقتصادية ليعد العدة لوضع الاقتصاد الاميركي كله على قدم الحرب حفظاً لسلامة الوطن .

اول ابريل ١٩٥٠ – نقلت السلطات الادارية في الصومال من بريطانيا الى ايطاليا .

٢ – قال الدكتور ايدناور رئيس حكومة المانيا الغربية : يجب ان تكون اوروبا قوية وان تكون المانيا فيها شريكاً على قدم المساواة التامة وبدون ذلك لا سلام بين الشرق والغرب فالحالة الدولية خطرة كل الخطر وصلت الى حد حرب محتملة الوقوع .

٣ – امر الرئيس ترومان الادارة المركزية بان تسعى لوضع خطة لتصبح التجارة الاميركية مع الخارج على اساس «ادفع وانقل» في عام ١٩٥٢ .

٤ – اقر مجلس الوصاية الدولي نص دستور مدينة القدس الذي وضعته الامم المتحدة عام ١٩٤٨ .

٥ – نشبت ثورة ضد حكومة الولايات المتحدة الاندونيسية في جزيرة « بلبيس » من جزر الهند الشرقية .

٦ – على اثر التظاهرة التي نظمها الحزب الشيوعي امس في باريس بلغ عدد رجال الشرطة الذين اصيبوا برضوض ١٢٨ .

٧ – صرح نجم الدين صادق وزير خارجية تركيا بان حلف الاطلنتيك عظيم ولكنه ناقص فهو يهمل نقطة عظيمة الشأن هي شرقي المتوسط الذي بقي مكشوفاً .

٨ – يسعى فان زيلند زعيم الحزب الاشتراكي المسيحي في بلجكا لتأليف الوزارة الجديدة .

– جرى قتال عنيف بين الاسطول الوطني الصيني والاسطول الصيني الشيوعي في الدفاع عن جزيرة هينان ، وتمكن ٥٠٠ من الشيوعيين من النزول في جزيرة بيشي كنغ .

١٠ – توفي المارشال فوزي تشاقماق القائد التركي الكبير ومنشىء الجيش الحديث عن ٧٨ عاماً وهو احد اعضاء الهيئة الثلاثية التي حكمت تركيا بضعة سنوات برئاسة كمال اتاتورك .

١١ – استدعى وزير الخارجية السوفياتية سفير الولايات المتحدة في موسكو وسلمه مذكرة احتجاج على تحليق طائرة اميركية في سماء روسيا .

١٢ – اذاع راديو موسكو ان وزارة الخارجية استدعت سفير ايطاليا وسلمته مذكرة احتجاج على امتناع الحكومات الايطالية عن دفع تعويضات الحرب التي تبلغ مئة مليون دولار .

١٣ – اذاع سوكارنو رئيس الجمهورية الاندونيسية امرا بالهجوم على ثوار ماكسار الذين يقودهم الكابتن عبد العزيز .

– اصدرت وزارة الخارجية الايطالية بياناً ذكرت فيه روسيا ان الديون المتوجبة على ايطاليا تسدد من الاملاك الايطالية في بلغاريا ورومانيا والمجر .

١٤ – قدم فنزيلوس رئيس الوزارة اليونانية استقالة حكومته وكلف الملك الجنرال بلاستيراس تأليف الوزارة الجديدة .

– وصل الكابتن عبد العزيز فجأة الى جاكرتا واقتيد الى قصر وزير دفاع اندونيسيا المتحدة .

١٥ – التمت حكومات امريكا وبريطانيا وفرنسا جهودها المشتركة لازالة الانفصال في علاقات ايطاليا ويوغوسلافيا حول مستقبل تريستا .

١٦ – دعا ولهلم بيك رئيس وزارة المانيا الشرقية الى اجراء استفتاء في جميع المانيا لتقرير الوحدة .

١٧ – قامت مظاهرات كبيرة في باريس فوقعت عدة اصابات واعتقلت الحكومة ثلاثة من زعماء الشيوعيين بينهم النائبة ماري لامبير .

١٨ – ارسلت الولايات المتحدة مذكرة احتجاج الى روسيا تتهمها فيها باسقاط طائرة اميركية غير مسلحة فوق مياه البلطيق الحرة وتطلب التعويض عن هذه الكارثة التي اودت بعشرة رجال .

١٩ – تأزمت الحرب الكلامية بين روسيا وامريكا بسبب حادث الطائرة الاميركية التي اسقطتها المطاردات الروسية .

٢٠ – اثارت الصحافة الروسية قضية المضايق وهاجمت ميثاق مونرو الخاص بالملاحة وقالت ان تركيا خاضعة للنفوذ الاميركي .

٢١ – اصبحت القوات الشيوعية الصينية على بعد ٢٤ كم من عاصمة الجزيرة هاينان ، وقد وصلت نجدات كبيرة الى القوات الصينية الوطنية لصد الغزو .

٢٢ – رفضت روسيا المذكرة الاميركية عن حادث اسقاط الطائرة بحجة انها كانت فوق الاراضي الروسية .

٢٣ – اكد الكونت سفورزا اصرار ايطاليا على ارجاع تريستا كلها من يوغسلافيا .

٢٤ – سقطت عاصمة جزيرة هينان في ايدي الجيوش الصينية الشيوعية وتراجع قوات الجيوش الوطنية دون مقاومة .

٢٥ – اعلن امس البرلمان الاردني قيام الوحدة التامة بين ضفتي الاردن الشرقية والغربية في مملكة واحدة هي الاردنية الهاشمية .

مطابع صادر وريحاني – تلفون ٦٢ – ٦٨